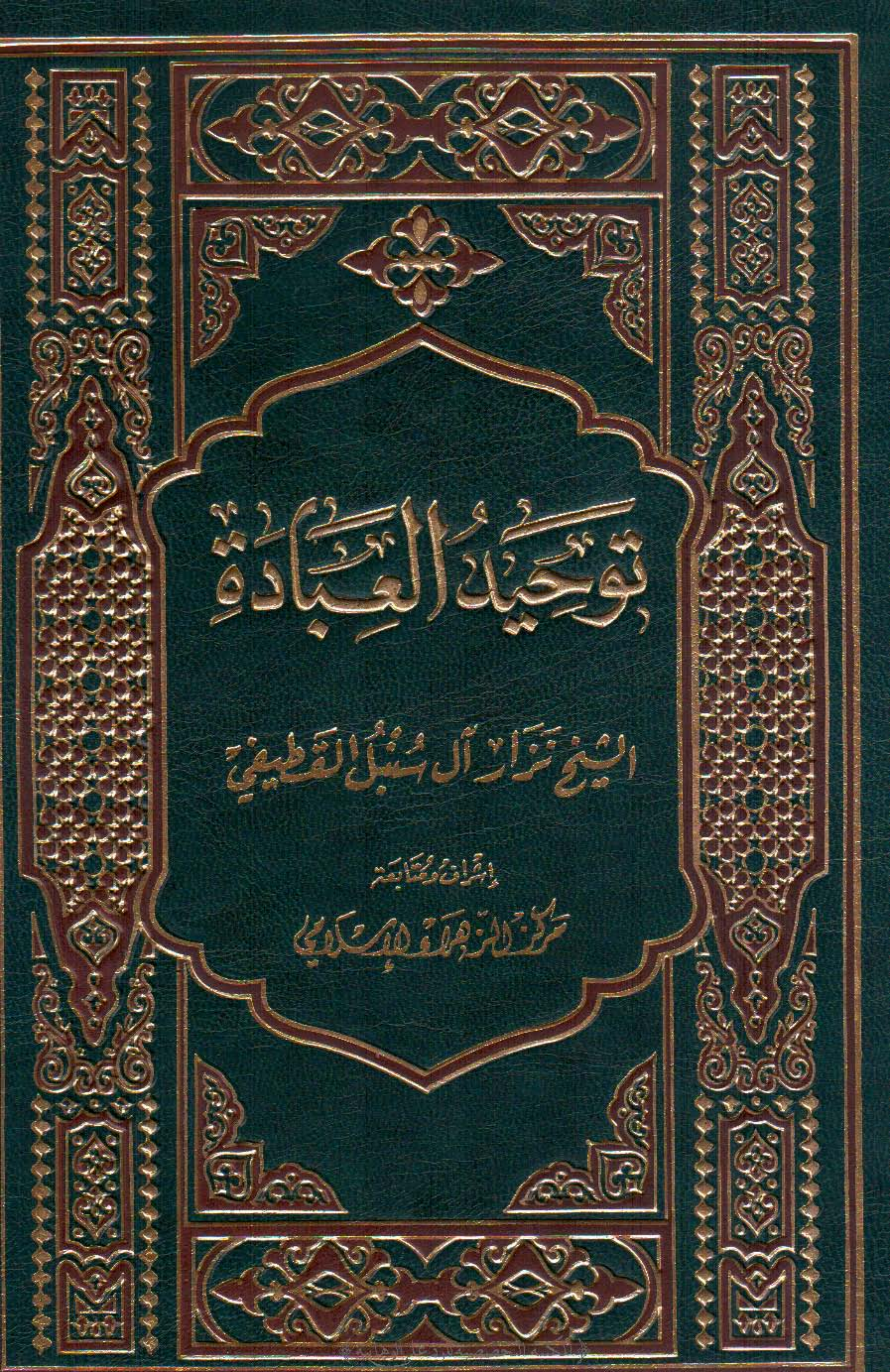

توحيد العبادة
الشيخ نزار آل سنبل القطيفي
إشراف ومتابعة
مركز الزهراء الإسلامي

تَوحِيدُ العِبَادَةِ

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

توحيد العبادة

بحث تحليلي في مفهوم العبادة والتوحيد وما يتصل بهما

الشيخ
نزار آل سنبل القطيفي

إشراف ومتابعة
مركز الزهراء الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة المؤمنين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، ولعنة الله على أعداء الدين أجمعين .

وبعد :

فإن توحيد العبادة من المباحث الإسلامية المهمة، بل هو من أساسيات دعوة الأنبياء إن لم يكن أساسها.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن

---

(١) سورة النحل: ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء: ٢٥ .

قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٢] .

يقول العلامة الكبير الشيخ محمد جواد البلاغي:

(إعلم أنّ من ضروريّات الدين، والمتّفق عليه بين جميع طبقات المسلمين، بل من أعظم أركان أصول الدين: اختصاص العبادة بالله رب العالمين، فلا يستحقّها غيره، ولا يجوز إيقاعها لغيره، ومن عبد غيره فهو كافرٌ مشرك، سواءً عَبَدَ الأصنامَ، أو عبد أشرف الملائكة، أو أفضل الأنام، وهذا لا يرتاب فيه أحدٌ ممّن عرف دين الإسلام .

وكيف يرتاب؟! وهو يقرأ في كل يوم عشر مرات: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٣] ، ويقرأ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾[٤] ، ويقرأ في سورة يوسف : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا

---

(١) سورة الزخرف: ٤٥ .

(٢) سورة آل عمران: ٦٤ .

(٣) سورة الفاتحة: ٥ .

(٤) سورة الكافرون .

تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]، ويقرأ في سورة التوبة: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[2] إلى أخر ما ذكر ...)[3].

وقد أثير حول توحيد العبادة الجدل الكثير، واتهم أكثر المسلمين من شيعة وسنة بالشرك من أجل ذلك، ويرجع ذلك في ما أعتقد إلى عدم وضوح المفهوم الإسلامي للعبادة وللتوحيد .

ومن هنا رأينا أن يكون محور بحثنا هو توحيد العبادة، وبيان الحق في تحديده ومفهومه، وما يرتبط به ليتضح الحق لذي عينين، والله الموفق وهو المسدد .

ولا يخفى أن هذه الأوراق كانت أصول محاضرات ألقيت على مجموعة من طلاب العلم في دار الصديقة الشهيدة عليها السلام التابعة لمكتب سماحة المرجع الديني الكبير الشيخ ميرزا جواد التبريزي قدس سره في قم المقدسة ، في شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٤هـ ، ارتأى بعض المؤمنين نشرها ، فبقيت على ما هي عليه إلى أن وفق الله تعالى أن أكون في شهر رمضان المبارك من سنة ١٤٣١هـ في جوار حرم عقيلة الهاشميين السيدة زينب عليها السلام بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فوقع العزم على أن نشرع في درس مفتوح في حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ، التابعة لسماحة آية الله العظمى الأستاذ الشيخ الوحيد الخراساني ، فخرجت

---

(١) سورة يوسف: ٤٠ .

(٢) سورة التوبة: ٣١ .

(٣) الرد على الوهابية ص ٤٧ وما بعدها .

الخيرة على أن نطرح هذا البحث، فشرعت فيه وأضفت له ما ينبغي إضافته ، فصار هذا الكتاب عسى أن يكون موضع استفادة المؤمنين ومن يريد أن يعرف الحق ويسعى إليه، وأرجو من الله العلي القدير أن ينظر إليها نظر القبول لتكون لي ذخراً ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] .

ولا أنسى أن أقول : بأني لم أترك إضافة الآل في الصلاة على النبي ﷺ ، وإن لم يذكرها صاحب الكتاب، وفي الأخير أشكر كل من ساعدني على إنجاز ذلك وهيّأ لي الظرف المناسب .

نزار آل سنبل القطيفي

(١) سورة الشعراء: ٨٨ـ٨٩ .

مراتب التوحيد عند الإمامية [1]

التوحيد هو الإقرار بالوحدة وهو الإنفراد، وقد ذكر العلماء مراتب كثيرة للتوحيد وربما يعبر عنها بأقسام التوحيد، ونحن نقتصر على ما يكون له صلة بالبحث بنحو أو بآخر وهي مراتب أربع:

المرتبة الأولى: توحيد الذات:

والمراد به: أن الله سبحانه وتعالى واحد في ذاته من جميع الجهات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

ويدل عليه ـ مضافاً إلى البراهين العقلية ـ قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

---

(١) لا يخفى أن التقسيم المعروف ـ ولا يبعد كونه هو الجامع ـ هو:

١- توحيد الذات.

٢- توحيد الأسماء والصفات.

٣- توحيد الأفعال.

٤- توحيد العبادة.

ويندرج توحيد الخالقية والربوبية وغيرهما في توحيد الأفعال، وإنما اخترنا التقسيم أعلاه ـ كما مشى عليه بعض من خاض في هذا المضمار ـ لتتضح المناقشة في تقسيم الوهابية.

(٢) سورة الشورى: ١١.

أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[2] .

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الدالة عليه .

المرتبة الثانية : توحيد الخالقية :

والمراد به: أنه ليس هناك خالق بذاته أصيل مستقل بالخلق إلا الله تعالى[3] .

وأما غيره من المؤثرات فهي غير مستقلة التأثير، بل تستمد قوتها منه تعالى .

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الزمر: ٤ .

(٣) أخذنا قيد الاستقلال ، للإشارة إلى مثل قوله تعالى على لسان النبي عيسى عليه السلام : ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ سورة آل عمران (٤٩)، فإن النبي عيسى عليه السلام نسب الخلق والنفخ لنفسه، ولكن ليس بقدرته المستقلة بل ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، وعلى ظاهر الآية لا يستحيل أن يكون الإنسان خالقاً غير مستقل إذا أقدره الله تعالى على ذلك، وأما إذا سلبه نعمة القدرة فهو لا يقدر على شيء أبداً حتى على رفع يده إلى جيبه .

(٤) سورة الأنعام ١٠٢ .

﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[٢].

المرتبة الثالثة: توحيد الربوبية والتدبير[٣]:

ونقصد به: أن الله سبحانه وتعالى هو المالك المدبر للكون بالاستقلال، وحده لا شريك له في ذلك من الملائكة ولا من الإنس والجن ولا من غيرهم.

وأما تدبير الملائكة وسائر الأسباب فهو بأمر من الله تعالى وبإمداده، فليس تدبيرهم للأشياء عن استقلال منهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ

---

(١) سورة الرعد: ١٦.

(٢) سورة الزمر: ٦٢.

(٣) سيأتي الفرق بين مصطلحنا ومصطلح أتباع محمد بن عبد الوهاب في ذلك فانتظر.

(٤) سورة يونس: ٣.

(٥) سورة يونس: ٣١.

لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾[3] .

ومن أحسن الأدلة عليه قول الإمام الصادق عليه السلام في جوابه للزنديق:

(فلما رأينا الخلق منتظماً ، والفلك جارياً ، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر ، دلّ صحة الأمر والتدبير، وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد)[4] .

وإنما سمينا هذا النحو من التوحيد بتوحيد الربوبية لأن معنى الرب لغة هو المالك المدبر ؛ قال ابن الأثير في نهايته:

(الربّ يُطْلَقُ في اللُّغة على المالِك والسَّيِّد المُدبِّر والمُرَبِّي والقَيِّم والمُنْعِم، ولا يُطلَقُ غيرَ مُضاف إلا عَلَى الله تعالى، وإذا أُطلقَ على غيره أُضِيف فيقال: رَبُّ كذا ، وقد جاء في الشِّعْر مطلقاً على غير الله تعالى وليس بالكَثِير)[5] .

وقال ابن منظور في لسان العرب:

(الرَّبُّ: هو الله عزّ وجلّ، هو رَبُّ كلِّ شيءٍ أَي مالكُه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلْق، لا شريك له، وهو رَبُّ الأَرْبابِ، ومالِكُ المُلوكِ

(١) سورة الرعد: ٢ .

(٢) سورة السجدة: ٥ .

(٣) سورة الرحمن: ١٧ .

(٤) التوحيد للشيخ الصدوق ص٢٤٤ .

(٥) النهاية في غريب الحديث ٢ : ١٧٩ .

والأَمْلاكِ ، ولا يقال الربُّ في غَير اللّه إلا بالإِضافة ...

قال: ويقال الرَّبُّ، بالأَلف واللام، لغيرِ اللّه؛ وقد قالوه في الجاهلية للمَلِكِ؛ قال الحارث بن حِلِّزة:

وهو الرَّبُّ، والشَّهيدُ عَلى يَوْ مِ الحِيارَيْنِ، والبَلاءُ بَلاء ...

وقال:

و ربُّ كلِّ شيءٍ: مالِكُه ومُسْتَحِقُّه؛ وقيل: صاحبُه . ويقال: فلانٌ رَبُّ هذا الشيءِ، أَي مِلْكُه له . وكُلُّ مَنْ مَلَكَ شيئاً ، فهو رَبُّه . يقال: هو رَبُّ الدابةِ، و رَبُّ الدارِ، وفلانٌ رَبُّ البيتِ، وهُنَّ رَبَّاتُ الحِجالِ)[1] .

وفي مجمع البحرين:

(قوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾، المراد مالكهما ومدبرهما .

ويطلق الرب على السيد أيضاً ، والمربي والمتمم والمنعم والصاحب، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى)[2] .

وسيأتي البحث في ذلك بنحو مفصل ، فانتظر .

المرتبة الرابعة: توحيد العبادة :

والمراد به: حصر العبادة في الله وحده .

قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ

---

(١) لسان العرب ١ : ٣٩٩ .

(٢) مجمع البحرين ٢ : ٦٣ .

(٣) سورة يوسف: ٤٠ .

إِيَّاهُ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[2].

وقد اتفق المسلمون على توحيد الله تعالى في هذه المراتب كلها، بما فيها توحيد العبادة، فلا تجد مسلماً يؤمن بالله تعالى وما جاء به الرسول ﷺ يشرك بعبادة ربه أحداً، ولا خلاف في ذلك من هذه الجهة أبداً.

محل الخلاف في توحيد العبادة:

نعم وقع الخلاف بين عامة المسلمين من جهة، وبين ابن تيمية وأتباعه من جهة أخرى في عدّ بعض الأعمال عبادة لغير الله، فالخلاف في تشخيص مصداق العبادة، فذهب المسلمون قاطبة إلى عدم كون تلك الأمور من العبادة في شيء، وذهب أتباع ابن تيمية إلى كونها عبادة لغير الله، وبهذه الجهة نسبوا المسلمين إلى الشرك في العبادة، فلم يسلم منهم موحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا من اتبعهم وقال بمقالتهم.

البرهان العقلي على توحيد العبادة:

ولا بأس بذكر برهان على توحيد العبادة مضافاً لما بينته الآيات الشريفة، قال السيد الخوئي ﵀ في تفسير البيان:

(وأنه لا يستحق غيره لأن يعبد، فالبشر ـ وكل موجود مدرك ـ

---

(١) سورة الإسراء: ٢٣.

(٢) سورة فصلت: ١٤.

يجب أن يكون خضوعه وتوجهه لله وحده . وبرهان ذلك ـ في هذه السورة[1] ـ هو أن العاقل إنما يخضع لمن سواه ويعبده، ويتوجه إليه بحوائجه لأحد أمور أربعة:

١- لكمال في ذلك المعبود المستعان، والناقص مجبول على الخضوع للكامل .

٢- لإحسانه وإنعامه عليه .

٣- لاحتياج الناقص في جلب منفعة أو دفع مضرة .

٤- لقهر الكامل وسلطانه فيخضع له خوفاً من مخالفته وعصيانه .

هذه الأسباب الموجبة للعبادة والخضوع .

وأيها ينظر فيه العاقل يراه منحصراً في الله سبحانه . فالله هو المستحق للحمد ، فإنه المستجمع لجميع صفات الكمال، بحيث لا يتطرق إلى ساحة قدسه شائبة نقص .

والله هو المنعم على جميع العوالم الظاهرية والباطنية، المجتمعة والمتدرجة، وهو مربّيها تكويناً وتشريعاً .

والله هو المتصف بالرحمة الواسعة غير القابلة للزوال .

والله هو المالك المطلق، والسلطان على الخلق بلا شريك ولا منازع .

فهو المعبود بالحق لكماله وإنعامه ورحمته وسلطانه، فلا يتوجه الإنسان العاقل إلا إليه، ولا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، لأن ما سوى الله ممكن، والممكن محتاج في ذاته،

---

(١) سورة الفاتحة .

والاستعانة والعبادة لا تكونان إلا للغني:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[١])[٢] .

(١) سورة فاطر: ١٥ .

(٢) البيان في تفسير القرآن: ٤٤٧ بتصرف .

أقسام التوحيد عند أتباع ابن تيمية

قسم ابن تيمية وأتباعه التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيد الربوبية .

الثاني: توحيد الإلوهية .

الثالث: توحيد الأسماء والصفات[1] .

وما يخص بحثنا هو القسم الثاني فقط، ولكن لا بأس في بيان مرادهم من القسم الأول أيضاً، وبيان خطأهم في التسمية في القسمين.

توحيد الربوبية:

ومرادهم به هو : إفراد الله ﷻ بالخلق، والملك، والتدبير[2] .

بل ربما يطلقونه على ما أطلقنا عليه توحيد الخالقية فقط! قال ابن تيمية: (وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ...)[3]، وقال صالح الفوزان: (فأمرهم بتوحيد

---

(١) لا يخفى أن الإمامية تعتقد بتوحيد الأسماء والصفات أيضاً، ولكن بما أنه ليس محل بحثنا الآن فلهذا لم نذكره من جملة الأقسام كما نبهنا عليه سابقاً .

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد لابن العثيمين: ٩ .

(٣) درء التعارض ١: ٢٢٥ .

الإلوهية، وهو عبادته، واحتجَّ عليهم بتوحيد الربوبية الذي هو خلق الناس الأولين والآخرين ...)[١] ، وسيأتي ما في هذا الكلام من الخلط والغلط .

توحيد الإلوهية:

ومرادهم به هو : إفراد الله ﷻ بالعبادة[٢] .

قال ابن العثيمين: (ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد إلوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة)[٣] .

ملاحظات على هذا التقسيم :

الملاحظة الأولى:

إنهم لم يجعلوا من جملة الأقسام توحيد الذات، والاعتقاد بتوحيد الله في ذاته من الأمور الضرورية لاعتقاد المسلم، فإن الأدلة العقلية والنقلية قائمة عليه، ولعلهم من أجل ذلك وقعوا في ما لا ينبغي الوقوع فيه من القول بالتجسيم أو ما لازمه التجسيم، فأثبتوا لله سبحانه ما أسموها بالصفات الخبرية بنحو الحقيقة من اليد والرجل والعين والاستواء والجلوس و .. و .. ؛ لأنه وصف بها نفسه فيصفونه بها، ويدعون أنها بنحوٍ تليق بجلاله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإن الله تعالى ليس بمركب بالتركيب العقلي ولا الخارجي، والقول

(١) عقيدة التوحيد ص٤١ .

(٢) القول المفيد ص١١ .

(٣) القول المفيد ص١١ .

بإثبات هذه الأمور لله تعالى على نحو الحقيقة يستلزم التركيب والجسمية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتفصيله في محله .

الملاحظة الثانية:

نلاحظ على تفسيرهم لتوحيد الربوبية أنهم اضطربوا في تحديده، ففسروه بتفسيرنا لتوحيد الخالقية تارة كما في بعض كلمات ابن تيمية، وجمعوا بين توحيد الخالقية والربوبية تارة أخرى كما في الكثير من كلمات علمائهم تبعاً للخلط الحاصل عند ابن تيمية في بعض كلماته، فابن تيمية وأتباعه خلطوا بين توحيد الخالقية وتوحيد الربوبية، ولم يفرقوا بينهما، بينما كان عليهم التفريق بينهما؛ إذ ليس المراد منهما واحداً، فإن حيثية الخلق هي حيثية الإيجاد، وحيثية الربوبية هي حيثية التدبير، كما تقدم بيانه وسيأتي شرحه.

فتوحيد الخالقية غير توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فأنت ترى أن الآية أثبتت أمرين لله تعالى: الخلق والأمر.

ولتوضيح ذلك بشكل أكثر نذكر بعض الآيات الدالة على المدعى:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤ .

(٢) سورة الأنبياء: ٥٦ .

فلو كان المقصود من لفظة (الرب) هنا هو الخالق والموجد لكانت جملة ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ زائدة، بدليل أنا لو وضعنا لفظة الخالق مكان الرب في الآية لاستغنينا عن جملة ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾؛ لأن الآية سوف تكون ـ حينئذ ـ بل خالقكم خالق السماوات والأرض، فلا معنى للقول بعدها: الذي فطرهن أي خلقهن، وهذا بخلاف ما لو كان المقصود من الرب هو المدبر؛ فإن الجملة الأخيرة مطلوبة حينئذ، وتكون علة للجملة الأولى، فيكون المعنى هو أن المدبر لأموركم هو مدبر السماوات والأرض الذي خلقهن .

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] .

فإنه لو أريد من لفظة الرب الخالق لما كان لجملة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ معنى؛ لأن المعنى سوف يكون اعبدوا خالقكم الذي خلقكم، ولا يصدر مثله من الحكيم العرفي فضلاً عن الحكيم المطلق، بخلاف ما لو كان معنى ربكم هو مدبر أمركم فسوف يكون المعنى اعبدوا مدبر أمركم الذي خلقكم، وهو معنى تام ومتناسب جداً .

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة: ٢١ .

(٢) سورة غافر: ٢٨ .

ووجه دلالة الآية على أن المقصود من الرب في ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هو المدبر لا الخالق هو أن فرعون لا يدعي خلق السماوات والأرض، ولا يدعي اشتراكه مع الله في ذلك، بل كان يدعي الربوبية بمعنى التدبير وما يرتبط به من الرزق وما شاكله، وخالفه النبي موسى عليه السلام بحصر تدبير الكون في الله تعالى، فأمر فرعون بقتله.

ويشهد لذلك قوله تعالى قبل هذه الآية الشريفة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[1].

فإن توحيد الخالقية لم يكن موضع خلاف بين النبي موسى عليه السلام وبين فرعون، فعلام خاف فرعون من أن يبدل موسى دينهم؟! إنما خاف لأنه يدعو إلى أن مدبر الكون هو الله تعالى وحده، لا فرعون كما يدعي لنفسه[2].

ومما يوضح أن فرعون لم يكن منكراً للخالق كونه يعتقد بوجود آلهة أخرى كما يرشد لذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[3]، فلا يعقل أنه يدعي الربوبية بمعنى الخالقية ثم يعتقد بوجود آلهة غيره وربما كان يعبدها.

فمن هذا يتبين أن تعريفهم لتوحيد الربوبية تعريف خاطئ.

---

(١) سورة غافر: ٢٦.

(٢) كتاب التوحيد والشرك في كتاب الله.

(٣) سورة الأعراف: ١٢٧.

معنى الرب عند المفسرين :

ولزيادة الإيضاح نقول: إن المفسرين لما تعرضوا لتفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) لم يفسروا الرب فيها بالخالق أبداً ولا بما يشمله، بل فسروها بالمالك والمتصرف وما شابه ذلك، وإليك بعض النماذج منها:

قال الطبري في تفسيره:

(وأما تأويل قوله: رب فإن الرب في كلام العرب متصرف على معان: فالسيد المطاع فيها يدعى رباً ...

والرجل المصلح للشيء يدعى رباً ...، ومن ذلك قيل: إن فلاناً يرب صنيعته عند فلان إذا كان يحاول إصلاحها وإدامتها ...

والمالك للشيء يدعى ربه، وقد يتصرف أيضاً معنى الرب في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة .

فربُّنا جلَّ ثناؤه السيد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر .

وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾جاءت الرواية عن ابن عباس قال: قال جبريل لمحمد: يا محمد قل: الحمد لله رب العالمين، قال ابن عباس: يقول قل الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، وما بينهن مما يعلم ومما لا يعلم، يقول: اعلم يا محمد أن ربك هذا لا يشبهه

---

(١) سورة الفاتحة: ٢ .

شيء)[١] .

وقال البيضاوي في تفسيره:

(الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل، وقيل هو نعت من ربه يربه فهو رب، كقولك نم ينم فهو نم، ثم سمي به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه)[٢] .

وفي تفسير القرطبي: (... أي مالكهم، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، فالرب المالك ...

والرب السيد ومنه قوله تعالى: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾[٣]، وفي الحديث: أن تلد الأمة ربتها أي سيدتها، وقد بيناه في كتاب التذكرة.

والرب المصلح والمدبر والقائم، قال الهروي وغيره: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربه يربه فهو رب له وراب، ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب، وفي الحديث: هل لك من نعمة تربها عليه، أي تقوم بها وتصلحها .

والرب المعبود، ومنه قول الشاعر:

أرب يبول الثعلبان برأسه

لقد ذل من بالت عليه الثعالب ..)[٤]

---

(١) تفسير الطبري ١ : ٦٢، وحذفنا سند رواية ابن عباس اختصاراً .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٥١ .

(٣) سورة يوسف: ٤٢ .

(٤) تفسير القرطبي ١ : ١٣٦ .

وفي تفسير ابن كثير: (والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى)[١] .

فإنك تلاحظ أنه ليس في كلمات المفسرين واللغوين لمعنى الخالق عين ولا أثر في تفسير كلمة الرب .

المعنى الحقيقي للرب :

إن من المعروف والملاحظ على كتب اللغة واللغويين هو اقتصارهم على بيان موارد استعمال اللفظ، سواء كان هو المعنى الحقيقي له أو لا ، فيقولون عن اللفظة: جاءت بمعنى كذا ، ويستشهدون ببيت شعر، وجاءت بمعنى كذا ويستشهدون ببيت آخر، وهكذا ...

ومن جملة تلك الألفاظ التي ذكروا لها عدة معاني من خلال موارد استعمالها هي كلمة (الرب)، ويمكن إرجاعها إلى معنى واحد أصيل بحيث تدور المعاني المذكورة حوله وهو مالك الأمر والتدبير، أو المدبر للأمر، فرب المزرعة والدار أي مالك أمرهما والمدبر لشؤونهما، وقول النبي يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢] باعتبار أنه المالك لأمره والمدبر لشؤونه، وهكذا ...، فالله سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾[٣] ، أي مالك أمرها والمدبر لها والمتصرف فيها كيف شاء ومتى شاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ : ٢٤ .

(٢) سورة يوسف: ٢٣ .

(٣) سورة مريم: ٦٥ .

والفرق بين إطلاق (رب) على العبد وإطلاقه على الله سبحانه وتعالى، هو الفرق بين الملكيتين، فإن ملكية العبد لمملوكه ملكية اعتبارية، أي أن العقلاء اعتبروا له الملكية، والشارع أمضاهم على ذلك في ضمن قيود وحدود، فهي تبطل ببطلان الاعتبار، وأما ملكية الله تعالى فهي ملكية حقيقية، ومعنى كونها حقيقية أن المملوك قائم في وجوده بالمالك غير مستقل عنه، وكما قال العلامة الطباطبائي ﷺ: (ومن المعلوم أن الملك الحقيقي لا ينفك عن التدبير؛ فإن الشيء إذا افتقر في وجوده الى شيء فلم يستقل عنه في وجوده، لم يستقل عنه في آثار وجوده، فهو تعالى رب لما سواه؛ لأن الرب هو المالك المدبر، وهو تعالى كذلك)[1] .

فالمخلوق مفتقر في وجوده إلى خالقه وهو الله تعالى، فيفتقر إليه في جميع الآثار المترتبة على وجوده كالحياة والرزق والصحة وغيرها ...

الملاحظة الثالثة:

إنّ تسميتهم لتوحيد العبادة بتوحيد الإلوهية تسمية خاطئة هي الأخرى؛ والسبب في ذلك:

هو أنهم فسروا كلمة إله بالمعبود، وجعلوه أمراً مسلماً لا يقبل الخطأ ولا النقاش، قال ابن تيمية في كتابه درء التعارض: (والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة)[2]، فلهذا يمكنك أن تلاحظ جهة الإله فتقول توحيد الإلوهية، ويمكن أن تلاحظ جهة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ١: ٢١ .

(٢) درء التعارض ١: ٢٢٦ .

العبد فتقول توحيد العبادة، كما قالوا: بأن المراد من كلمة التوحيد أعني (لا إله إلا الله) هو لا معبود إلا الله، ولكنهم استدركوا حتى لا يقعوا في محذور الكذب الصريح؛ لتعدد المعبود في الخارج، فأضافوا كلمة (بحق) فيكون المعنى لا إله بحق إلا الله .

وعندما نرجع إلى المفسرين وعلماء اللغة نلاحظ أنهم ذكروا احتمالات كثيرة للمراد من كلمة (إله)، ووجدت عندهم آراء مختلفة ومضطربة في أصل اشتقاق كلمة (الله)، وفي المراد من كلمة (إله)، ونذكر بعض نصوصهم في ذلك كأنموذج للخلاف الواقع بينهم.

قال الراغب في المفردات:

(إله: الله قيل: أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى، ولتخصصه به قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[1]، وإله جعلوه اسما لكل معبود لهم، وكذا الذات، وسموا الشمس إلاهة لاتخاذهم إياها معبوداً، وأله فلان يأله عبد، وقيل: تأله فالإله على هذا هو المعبود .

وقيل: هو من أله أي تحير، وتسميته بذلك إشارة إلى ما قال أمير المؤمنين عليه السلام : (كلّ دون صفاته تحبير الصفات وضل هناك تصاريف اللغات) . وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته تحير فيها، ولهذا روي (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) .

وقيل: أصله وِلاه فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل

---

(١) سورة مريم: ٦٥ .

مخلوق والهاً نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة معاً كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها، وعليه دل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(١) .

وقيل: أصله من لاه يلوه لياهاً، أي احتجب، قالوا: وذلك إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾(٢)، والمشار إليه بالباطن في قوله: ﴿ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾(٣) .

وإله حقه أن لا يجمع ؛ إذ لا معبود سواه ، لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه ، فقالوا الآلهة قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾(٤)، وقال: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾(٥)، وقرئ وإلاهتك أي عبادتك)(٦) .

وقال القرطبي في تفسيره: (الحادية والعشرون: واختلفوا في هذا الاسم، هل هو مشتق أو موضوع للذات علم ؟ فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا في اشتقاقه وأصله، فروى سيبويه عن الخليل: أن أصله إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة ...

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣ .

(٣) سورة الحديد: ٣ .

(٤) سورة الأنبياء: ٤٣ .

(٥) سورة الأعراف: ١٢٧ .

(٦) مفردات الراغب ص٢١ .

وقيل: أصل الكلمة (لاه) وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه ...

وقال الكسائي والفراء: معنى (بسم الله) بسم الإله، فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية فصارتا لاماً مشددة ...

ثم قيل: هو مشتق من (وله) إذا تحير، والوله: ذهاب العقل . يقال: رجل وله وامرأة والهة ووالـه ... فالله سبحانه تتحير الألباب وتذهب في حقائق صفاته والفكر في معرفته ...

وروي عن الضحاك أنه قال: إنما سمي (الله) إلهاً؛ لأن الخلق يتألهون إليه في حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم ...

وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهاً فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت .

وقيل: هو مشتق من أله الرجل إذا تنسك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ على هذه القراءة، فإن ابن عباس وغيره قالوا: وعبادتك . قالوا: فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين: لا إله إلا الله، معناه لا معبود غير الله ، و(إلا) في الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء .

وزعم بعضهم أن الأصل فيه (الهاء) التي هي الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجداً في فطر عقولهم، فأشاروا إليه بحرف الكناية، ثم زيدت فيه لام الملك؛ إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار (له)، ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيماً وتفخيماً .

القول الثاني: ذهب إليه جماعة من العلماء أيضاً منهم الشافعي وأبو

المعالي والخطابي والغزالي والمفضل وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه: أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفها منه... والله أعلم)[1].

وقد تعرض لهذه الاختلافات مفسرو الشيعة أيضاً، ولكن نكتفي بما تقدم لتماميّة الحجة على الخصم به.

الإشكال على تفسير كلمة (إله) بالمعبود :

إذا عرفت هذا فالإشكال على تفسير كلمة (إله) بالمعبود من وجوه:

أولاً: من خلال ما عرفناه عن اللغويين والمفسرين لا يوجد مبرر لابن تيمية وأتباعه في حصرهم المراد من (الإله) بالمعبود، وهو حمل للفظ على أحد ما ذكر له من المعاني بدون قرينة ولا دليل، وهو أمر غير مقبول أبداً.

ثانياً: إن أساس تفسير (إله) بالمعبود باطل لا يمكن المصير إليه؛ لأن لازم ذلك أن لا يطلق (إله) على الله تعالى أزلاً؛ لأنه لم يكن حينئذ عابد أصلاً حتى يكون معبوداً، (كان الله ولم يكن معه شيء).

والعابد والمعبود معنيان إضافيان لا يتعقل أحدهما بدون تعقل الآخر كالأبوة والبنوة، والفوقية والتحتية، فلا يتعقل الأب بدون ابن، ولا الابن بدون أب، فلا تقول: هذا أب، ولا ولد له، كما لا تقول: هذا ابن، إذا لم يكن له أب، ولهذا لا يقال لآدم عليه السلام: ابن لعدم الأب له.

وهكذا الحال في معنى (فوق) فلا تطلق كلمة فوق على شيء إلا

(١) تفسير القرطبي ١: ١٠٢.

إذا كان هناك شيء تحته، وكلمة المعبود من هذا القبيل، فما لم يكن هناك عابد لا يكون هناك معبود، وهذا أمر واضح لا يخفى على من أعطاه الله نعمة العقل والتفكير.

ثالثاً: يلزم سلخ الإلهية عن الله تعالى بعد فناء الأشياء؛ لأنه عندما تفنى جميع الأشياء ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، حينها لا يوجد عابد فلا يكون الله معبوداً، كما بينا الوجه في ذلك سابقاً، وإذا فسرت كلمة (إله) بالمعبود فيلزم ارتفاع هذه الصفة عنه عند فناء الأشياء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ونعوذ بالله من شر هذا الاعتقاد.

رابعاً: إن من جملة ما يدل على عدم كون (إله) بمعنى معبود هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ لأنه لو كانت كلمة (إله) بمعنى معبود للزم كذب هذه الجملة؛ لكثرة المعبودين في هذه الدنيا.

ومن أجل ذلك التجأ القائلون بهذا القول إلى تقدير كلمة بحق، فيكون المعنى (لا إله بحق إلا الله)، ولكن لا يخفى أنّ ذلك خلاف الظاهر ومخالف للهدف من كلمة التوحيد، فإن الهدف منها هو نفي أي إله في الكون سوى الله تعالى، ونفي أي مصداق لهذا المفهوم إلا الله تعالى، فيكون هذا المفهوم مختصاً به تعالى، وهذا الهدف لا يجتمع مع القول بأن (إله) بمعنى معبود.

خامساً[1]: أن بعض الآيات تدل بوضوح على أن الإله ليس بمعنى

(١) استفدناه من كتاب التوحيد والشرك في كتاب الله، ص٥٥، بإضافة وتصرف.

المعبود، بل بمعنى المدبر أو من بيده أزمة الأمور أو ما يقرب من هذا المعنى، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١).

فإنّ هذه الآية تشكل برهاناً على نفي تعدد الآلهة، وحاصل البرهان أنه لو تعددت الآلهة للزم فساد النظام الكوني؛ لأن كل إله سوف يعمل بحسب ما يراه من المصلحة، وسيقع الخلاف بينهما حتماً؛ لعدم تطابق اثنين في كل شيء، في الاختيار والتنظيم والعمل وو ...، وبما أن النظام الكوني في غاية الدقة والإحكام والانضباط والاستقرار فلم تتعدد الآلهة إذن، وهذا البرهان لا يتم بتفسير الآلهة بالمعبود؛ لأنه من الضرورة بمكان أن المعبودين متعددون في الخارج ومع ذلك لم يلزم الفساد في الكون، فلا يتم البرهان إلا بتفسير الإله بالمتصرف في الكون أو المدبّر له أو من بيده أزمّة أمره؛ لأنه حينئذ سيعمل كلُّ مدبّرٍ حسب ما يوافق رأيه فيقع الاختلاف ثم الفساد الكوني.

٢- قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٢).

وهذه الآية تنفي أيضاً وجود إله آخر بدليل أنه لو وجد لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، فيقع الفساد الكوني نتيجة تغاير نظام المخلوقات لتغاير المنظّم، أو سيقع النظام كله بيد الأقوى

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون: ٩١.

ويكون هو الإله الحقيقي، والبقية رعايا تحته، وهذا البرهان لا يتم إلا بتفسير الإله بالخالق أو المدبّر أو ما شاكل، ولا يتم بتفسير الإله بالمعبود .

٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

إن الآية الأولى بينت أنّ المشركين ومن يعبدونهم من دون الله حصب جهنم .

والآية الثانية تبيّن امتناع كون هؤلاء آلهة بدليل أنّهم يردون جهنم، ولو كانوا آلهة لما وردوها .

ومن خلال ذلك يتبين أن المراد من (آلهة) في الآية الكريمة ليس هو جمع (إله) بمعنى المعبود، لعدم تماميّة الاستدلال حينئذ، فإن الآية حكمت عليهم بورود النار مع كونهم معبودين والإله لا يرد النار، فلا يتم الاستدلال إلا بتفسير الآلهة بالخالق أو من بيده تدبير الكون؛ فإن مثله لا يدخل النار .

ونضيف على ما تقدم قوله تعالى:

٤- ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ

(١) سورة الأنبياء: ٩٨-٩٩ .

أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1] .

فكلّ آية من هذه الآيات الكريمة رتبت الاستفهام ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ على الاستفهام السابق عن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي، وإجابة المضطر ، وكشف السوء ، وجعلكم خلفاء الأرض ، والهداية في ظلمات البر والبحر ، وإرسال الرياح بشراً ، وبدأ الخلق وإعادته ، والرزق ... ، وكلّ هذه الأمور لا يقوم بها إلا الخالق للكون والمدبر له ، فعقيب الاستفهام عن هذا المقام لا يناسبه الاستفهام عن معبود ثانٍ مع الله تعالى ، بل المناسب هو الاستفهام عن خالقٍ ثانٍ أو مدبّرٍ آخر ، فهذه الآيات تكشف بوضوح عن أنّ المراد من (إله) ليس هو المعبود .

وأيضاً قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[2] .

فلا يتوهّم متوهّم ممن حسن فهمه واستقامت سليقته أن المراد من الآيتين هو: مَنْ معبود غير الله يأتيكم بضياء ، أو بليل تسكنون فيه .

فمن هذه الآيات وغيرها يتبين لنا أن الاستعمال القرآني لكلمة (إله) في

---

(١) سورة النمل: ٦١ ـ ٦٤ .

(٢) سورة القصص: ٧١ ـ ٧٢ .

كثير من الآيات الشريفة ليس بمعنى المعبود .

سادساً : أنه يستفاد من عدّة من آيات أن العبادة من آثار الإلوهية ، بمعنى أن العبادة رتّبت على كون المعبود إلهاً ، فلابدّ من فرض كونه إلهاً في مرحلة سابقة على مرحلة كونه معبوداً ، ومن لم يكن إلها لا يستحق العبادة ، وهذا يقتضي بأن (إله) ليس بمعنى معبود.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[(١)] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[(٢)] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[(٣)] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[(٤)] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[(٥)] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[(٦)] ، وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[(٧)] .

---

(١) سورة هود: ٥٠ .

(٢) سورة هود: ٦١ .

(٣) سورة هود: ٨٤ .

(٤) سورة طه: ١٤ .

(٥) سورة الأنبياء: ٢٥ .

(٦) سورة المؤمنون: ٢٣ .

(٧) سورة المؤمنون: ٣٢ .

سابعاً: لو قلنا بأن (إله) بمعنى معبود للزم الدور؛ لتوقف العبادة على كونه إلهاً، وتوقف كونه إلهاً على عبادته؛ إذ قبل أن يعبد لم يتخذ إلهاً وهو باطل بضرورة العقل.

الإشكال على تفسير كلمة (إله) بالمستحق للعبادة :

وأمّا لو فسرت كلمة (إله) بالمستحق للعبادة كما ذهب إليه بعض المتقدمين[1]، ويظهر من عبارة ابن تيمية السابقة، وغيره ممن تبعه من الوهابية بقصد أو بغير قصد، فيرد عليه إشكال الشيخ الطوسي ﵀ في تفسيره التبيان، وتبعه فيه الشيخ الطبرسي في تفسيره مجمع البيان حيث قالا:

(ومعنى (الله) و (الإله) أنه الذي تحق له العبادة، وإنما تحق له العبادة؛ لأنه قادر على خلق الأجسام وإحيائها والإنعام عليها بما يستحق به العبادة، ولذلك يوصف فيما لم يزل بأنه إله.

وهو تعالى (إله) للحيوان والجماد؛ لأنه قادر على أن ينعم على كل منهما بما معه يستحق العبادة، فأما من قال: معنى الإله المستحق للعبادة يلزمه أن لا يكون إلهاً في الأزل؛ لأنه لم يفعل الإنعام الذي يستحق به العبادة وهذا خطأ)[2].

فالشيخان ـ الطوسي والطبرسي ـ فرّقا بين أمرين، وبعبارة أدق بين حقين من حقوق الإله:

---

(١) يظهر من رد الشيخ الطوسي لهذا القول في تفسيره التبيان ١: ٢٧.

(٢) نقله عنهم الشيخ الطوسي في تفسير التبيان ١: ٢٧، والشيخ الطبرسي في تفسير مجمع البيان ١: ٢١.

الأول: (من يحق له العبادة) .

والثاني: (من يستحق العبادة) .

ومنشأ الحق الأول هو القدرة المطلقة على خلق الأجسام وإحيائها وإماتتها والتصرف فيها، ومنشأ الثاني هو تحقق الإنعام من هذا القادر المطلق، والمراد من (إله) هو الأول لأن الله تعالى (إله) قبل خلق السماوات والأرضين ومن فيهن، ولو فسرناه بمن يستحق العبادة لكان إلهاً بعد الخلق والإنعام وهو باطل .

ولا يتوهم أحد أنهما ينكران أن الله تعالى مستحق للعبادة؛ حاشا وكلا؛ لأنهما يعترفان بأن الله الذي يحق له العبادة قد فعل الإنعام، فأنعم على خلقه بنعمة الوجود وبغيرها من النعم الجسام، فهو مستحق للعبادة بلا إشكال ولا كلام، ولكن ما يريدانه عدم إنكار كل هذا ولكنه في الوقت نفسه لا يعني كون المراد من كلمة (إله) هو المستحق للعبادة، بل المراد بها هو الذي تحق له العبادة، وإلا لزم الإشكال المتقدم، وذلك واضح .

ويؤيد قول العلمين الشامخين ما أفاده أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية حيث قال:

(٢٦٩ : الفرق بين الإله والمعبود بحق: أن الإله هو الذي يحق له العبادة، فلا إله إلا الله، وليس كل معبود يحق له العبادة، ألا ترى أن الأصنام معبودة، والمسيح معبود، ولا يحق له ولها العبادة)[1] .

وقال أيضاً: (٧٧٠ : الفرق بين قولنا يحق له العبادة، وقولنا يستحق

---

(١) الفروق اللغوية: ٦٨ .

العبادة: أن قولنا يحق له العبادة يفيد أنه على صفة يصح أنه منعم، وقولنا يستحق يفيد أنه قد أنعم واستحق، وذلك أن الاستحقاق مضمن بما يستحق لأجله)[١] .

المراد من كلمة (إله) :

بعد هذه الجولة في الكلمات يمكننا أن نقول: إن المستفاد من كلمة (الإله) هو نفس ما يستفاد من كلمة (اللّه)، أعني ذلك المعنى البسيط من جميع الجهات، التي تكون بقية العناوين ـ كالخالق والمدبر والرازق والمحيي والمميت ومن يحق له العبادة ... ـ مشيرة له، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار أن اللفظة الأولى (إله) معنى كلي ينحصر في فرد واحد عند الموحدين، والثانية كلمة (اللّه) علم شخصي على الذات المقدسة .

وعلى هذا فكلمة التوحيد (لا إله إلا اللّه) تنفي وجود أي إله بهذا المعنى[٢]، وتحصر هذا الكلي في اللّه تعالى، وهذا غاية التوحيد لأنه توحيد للّه تعالى من جميع الجهات، وليس في العبادة فقط .

الملاحظة الرابعة: ادعى الوهابية ـ تبعا لابن تيمية أيضاً ـ عدم وجود مشركين في الربوبية، والشرك إنما حصل في خصوص العبادة، قال ابن تيمية:

(وأما الربوبية فكانوا مقرين بها قال اللّه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

---

(١) الفروق اللغوية: ١٩٣ .

(٢) أي بسيط من جميع الجهات المتصف بكونه الخالق المدبر الرازق المحيي المميت من يحق له العبادة ...

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[١]، وقـــال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾[٢]، الى قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[٣]، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم كما ذكرنا اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله)[٤] .

وقال ابن العثيمين: (... لم ينكره أحد معلوم من بني آدم، فلم يقل أحد من المخلوقين: إن للعالم خالقين متساويين .

فلم يجحد أحد توحيد الربوبية، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك إلا ما حصل من فرعون؛ فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة ...)[٥] .

ثم ناقض نفسه حيث قال بعد أسطر قليلة: (... وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس، حيث قالوا: إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور ...)[٦] .

وقال صالح الفوزان: (فهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به ...، وأشهر من

---

(١) سورة لقمان: ٢٥ .

(٢) سورة المؤمنون: ٨٤ـ٨٥ .

(٣) سورة المؤمنون: ٨٩ .

(٤) مجموع الفتاوى ١: ٩١ .

(٥) القول المفيد ص١٠ .

(٦) القول المفيد ص١١ .

عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الرب فرعون ...)[١] .

وقال: (والشرك في الربوبية باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال ممتنع، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن معبوداتهم تملك بعض التصرفات في الكون، وقد تلاعب بهم الشيطان في عبادة هذه المعبودات ...

وطائفة اتخذت الأصنام على صورة الكواكب، التي زعموا أنها تؤثر على العالم ...)[٢] .

وأنت ترى التناقض العجيب في هذا الكلام القريبة جمله، المتقاربة ألفاظه، فترى ابن العثيمين ينكر وجود مشركين في الربوبية ثم يستثني فرعون مع توجيه، ثم يبين اعتقاد المجوس بأن هناك خالقين!! وإن كان أخطأ في هذه النسبة أيضاً كما لعلنا نبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وترى الفوزان يقول بضرس قاطع: (فهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم)، ثم يرجع سريعاً فيقول: (وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن معبوداتهم تملك بعض التصرفات في الكون)، ويقول: (وطائفة اتخذت الأصنام على صورة الكواكب، التي زعموا أنها تؤثر على العالم)، وهكذا ...

فعندما ترجع إلى كلمات شيوخ الدعوة الوهابية في هذا الأمر ترى التناقض العجيب من غير التفات ولا تأمل، وسببه عدم التفريق

---

(١) عقيدة التوحيد ص٢٤ .

(٢) عقيدة التوحيد ، ص٢٩ .

والتمييز بين توحيد الخالقية وتوحيد الربوبية، فيستدلون على عدم شرك المشركين في الربوبية باعترافهم بالخالقية!! والفرق بينهما جدٌّ كبير.

فهم ـ إذن ـ وقعوا في خطأ عظيم وغلط جسيم لابد من بيانه وكشفه، فنقول:

أما بالنسبة إلى توحيد الخالقية فالقدر المتيقن قوله هو: أن هناك من الوثنيين الموجودين في عصر الرسالة، بل مع الرسول ﷺ في بلد لم يكونوا ينكرونه كما تدل عليه الآيات الشريفة منها:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4].

فهذه الآيات صبت السؤال عن الخلق، لا عن الربوبية كما هو واضح فلا ينبغي الخلط بين الأمرين.

ويمكن أن يستظهر من بعض الآيات وجود وثنيين في زمن الرسول ﷺ أيضاً كانوا ينكرون الخالق، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ

---

(١) سورة لقمان: ٢٥ .

(٢) سورة الزمر: ٣٨ .

(٣) سورة الزخرف: ٩ .

(٤) سورة الزخرف: ٨٧ .

شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[١] ، ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] ، ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٣] .

ويستظهر من هذه الآية إنكار الصانع على أحد التفسيرين للآية ؛ حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصودين بذلك هم الوثنيون الذين ينكرون الصانع، وذهب آخرون إلى أن المراد منهم هنا من يثبت الصانع وينكر البعث والمعاد[٤] .

وأما الوثنيون ممن سبقوا زمان الدعوة الإسلامية فربما يظهر من بعض الآيات الشريفة وجود من أنكر توحيد الخالقية أيضاً، قال تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[٥] .

فإن الذي يظهر من سياق الآيات أن هذا الرجل لم يكن يعبد غير الله تعالى ولكنه دخل جنته وهو ظالم لنفسه فكفر بالله تعالى منكراً لوجوده، لا مشركاً مع الله أحداً في عبادته، فلم يظهر من الآيات أن هذا الرجل عبد معبوداً آخر غير الله تعالى، ومع ذلك عبّرت

(١) سورة الطور: ٣٥ .

(٢) سورة فصلت: ٩ .

(٣) سورة الجاثية: ٢٤ .

(٤) راجع الميزان في تفسير القرآن ١٨ : ١٧٤ ، فقد بين وجود الخلاف بين المفسرين .

(٥) سورة الكهف: ٣٧ .

الآية الأخرى: ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[1] .

وأما بالنسبة إلى توحيد الربوبية فالحق وجود من يشرك مع الله تعالى رباً قبل زمن الرسالة الخاتمة وحال بعثته ﷺ، كما تدل عليه الآيات والآثار، فإن من الوثنيين من يعتقد بأن الله خلق الخلق ثم اعتزلهم وفوض أمر الكون لغيره فيكون الغير هو المدبر المستقل للكون من دون الله.

فمن كانوا يعيشون على ساحل البحر اعتقدوا بإله البحر لينجيهم من هول البحر وخطره، ويمدهم بخيره ودرره، ومن كانت مصلحتهم في البر اعتقدوا بإله البر، وهناك من يعتقد بإله الخير وإله الشر، وإله الحرب وإله السلم، وهكذا ...، والمخلوقات التي فوض لها الأمر في نظر أصحاب الاعتقاد بالتفويض هي: (الملائكة) و(الجن) و(الكواكب) و(الأرواح المقدسة) و .. و ..، فكانوا يعبدون هذه المخلوقات من دون الله لأنها أرباب لهم في اعتقادهم، ولهم أمر تدبيرهم.

ومنهم من يعتقد بأن لمعبوداتهم شيئاً من التصرف الربوبي المستقل عن الله تعالى، وبهذا الأخير اعترف الفوزان في مقالته السابقة .

يقول الشهرستاني في كتابه الملل والنحل في صفة عبدة الكواكب:

(١- عبدة الشمس: (الدِّينيكيتية)

زعموا: أن الشمس ملك من الملائكة، ولها نفس وعقل، ومنها نور

---

(١) سورة الكهف: ٤٢ .

الكواكب وضياء العالم، وتكوّن الموجودات السفلية، وهي ملك الفلك فتستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء ...

٢- عبدة القمر: (الجنْدَرِيكينيّة)

زعموا: أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي والأمور الجزئية فيه، ومنه نضج الأشياء المتكونة وإيصالها إلى كمالها ...)[1] .

فهذا النص يكشف بوضوح عن عقيدة عبدة الشمس والقمر وأنهم يعتبرون الشمس والقمر ربّين لهما من دون الله تعالى، يملكان التصرف والتدبير في الكون، بل اعتقاد عبدة الشمس فيها أنها (تكوّن الموجودات السفلية) .

ومن كان في عصر النبي إبراهيم عليه السلام من عباد الأوثان كانوا يعتقدون بأن المدبر للكون أو للمخلوقات السفلية لا أقل هي الكواكب فلهذا أراد النبي إبراهيم عليه السلام أن يبطل اعتقادهم بربوبيتها عن طريق أفولها وعدم استمرارها في البزوغ، والمدبر للشيء لابد أن يكون دائم الإشراف على من يدبره، ولهذه الجهة جاءت الآيات بلفظ الرب، ولم تأت بلفظ الخالق أو الإله، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى

(١) الملل والنحل ٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[١] .

فاختيار التعبير بـ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ دون التعبير بهذا خالقي، أو هذا إلهي، يرشد إلى أنهم يؤمنون بأن هذه الكواكب أرباب لهم من دون الله تعالى فأراد النبي إبراهيم عليه السلام أن يبطل هذا الاعتقاد الزائف بهذا الحوار الصوري المنطقي ليكشف لهم عن زيغهم وبطلان عقيدتهم .

وكذلك بالنسبة إلى من حاج إبراهيم عليه السلام في ربه، فإنه يدعي مقام الربوبية! ولهذا نسب إلى نفسه الإحياء والإماتة التي هي من شؤون الربوبية والتدبير قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] .

ويظهر وجود الشرك الربوبي بين الناس في كثير من الآيات ، كما قال تعالى على لسان النبي يوسف عليه السلام : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[٤] .

ومما يشير إلى ذلك الآيات التي تحدثت عن اتخاذ الأنداد، كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) سورة الأنعام: ٧٦ـ٧٨ .

(٢) سورة البقرة: ٢٥٨ .

(٣) سورة يوسف: ٣٩ .

(٤) سورة آل عمران: ٨٠ .

أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٢).

فإن الند هو المثل والنظير، جاء في لسان العرب:

(والنِّدُّ، بالكسر: المثل والنظير، والجمع أنداد ...

الأَنْدَادُ جمع نِد، بالكسر، وهو مثل الشيء الذي يُضادُّه في أُموره و يُنادُّه أَي يخالفه، ويريد بها ما كانوا يَتخذونه آلهة من دون الله تعالى الله ... قال الأَخفش: النِّدُّ الضِّدُّ والشِّبْهُ.

وقوله: يجعلون أَنْداداً، أَي أَضداداً وأَشباهاً. ويقال: نِدُّ فلان و نَدِيدُه و نَدِيدَتُه أَي مِثْلُه وشَبَهُه.

وقال أَبو الهيثم: يقال للرجل إِذا خالفك فأَردت وجهاً تذهب به ونازعك في ضِدِّه: فلان نِدِّي و نَدِيدي للذي يريد خلافَ الوجه الذي تريد، وهو مستقِلٌّ من ذلك بمثل ما تستَقِلُّ به ...)(٣).

فهذا التفسير للند يبين بوضوح أن المشركين يعتقدون في آلهتم الندية لله تعالى، أي المثلية والمضادة، وأن عملهم عن استقلال كعمله سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يشير إلى ذلك أيضاً آيات كقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٠.

(٣) لسان العرب: ٣: ٤٢٠.

فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[١]، ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٢]، ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٣].

ومما يدل على أن المشركين يعتقدون في آلهتهم القدرة على التصرف وجلب المنفعة أو المفسدة قوله تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾[٥].

ومما يدل على وجود المشركين في الربوبية بين المشركين العرب فضلاً عن غيرهم ما رواه ابن هشام في السيرة النبوية قال: (أصل عبادة الأصنام في أرض العرب.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق، ويقال: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا.

فقال لهم ألا تعطونني منها صنماً فأسير به الى أرض العرب

(١) سورة الفرقان: ٢.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٠.

(٣) سورة الصافات: ١٥٨.

(٤) سورة هود: ٥٤.

(٥) سورة مريم: ٨١.

فيعبدوه، فأعطوه صنماً يقال له: هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه)[١] .

وفي رواية الشهرستاني: (هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية، والأشخاص البشرية، نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقى، ونستشفى بها فنشفى ...)[٢] .

فهذا يدل على شركهم في الربوبية، ولهذا قالوا: فنستمطرها فتمطرنا، وليس مجرد عبادتها .

ومما يمكن أن يستدل به على ذلك أيضاً ما ورد في صحيحي أهل السنة البخاري ومسلم واللفظ للأول: (... عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب)[٣] .

قال النووي في شرحه للحديث :

(وأما معنى الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا على قولين:

---

(١) السيرة النبوية ١: ٢٠٢ .

(٢) الملل والنحل ٢: ٢٤٣ .

(٣) البخاري ١: ٢٩٠، ومسلم ١: ٨٣ .

أحدهما: هو كفر بالله سبحانه وتعالى، سالب لأصل الإيمان، مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء، والشافعي منهم، وهو ظاهر الحديث، قالوا: وعلى هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً بالعادة فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها)[1] .

فمن هذا النص نستنتج أن وجود الشرك في الربوبية مما يعترف به علماء السنة أيضاً، وممن يصرح بذلك الطبري في تفسيره حيث قال:

(القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[2]، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه: ادعو أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه)[3] .

ونضيف إلى ذلك تلبية العرب في الحج فالذي يظهر منها إشراك غير الله تعالى معه في غير العبادة أيضاً فإنهم يقولون:

(لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢: ٦٠ ـ ٦١ .

(٢) سورة الإسراء: ٥٦ .

(٣) تفسير الطبري ١٥: ١٠٣ .

ملك)[١] .

ونختم القول للرد على ابن تيمية والوهابية المنكرين لوجود الشرك في الربوبية بقول مؤرخي الملل والنحل، فهذا الشهرستاني يقول:

(معطلة العرب، وهم أصناف : ١- منكرو الخالق والبعث والإعادة ...)[٢] .

والخلاصة: أن الكفار على أقسام:

فمنهم من يكفر بالله الخالق أساساً فينكر الصانع المبدع للكون.

ومنهم من يشرك بالله تعالى غيره في الربوبية وتدبير الأمور.

وفيهم من يشرك بالله في العبادة مع اعترافه بأن الخالق المدبر هو الله تعالى، ولكن يعطي معبوده امتيازاً خاصاً كمقام الشفاعة مستقلاً عن الله تعالى فيشفع بدون إذنه تعالى.

وأما ما ارتكبه الوهابية ـ تبعاً لابن تيمية ـ من إنكار وجود الكفر في الربوبية مطلقاً ، فهو قول خالٍ عن البرهان، عارٍ عن الدليل.

(١) تفسير الطبري ٩: ٢٣٥ .

(٢) الملل والنحل ٢: ٢٤٤ .

أقسام الكفر والشرك

بما أننا تعرضنا لأقسام التوحيد فيناسب جداً أن نتعرض لأقسام الكفر والشرك، وهي تعرف بالمقابلة مع أقسام التوحيد، فيكون إنكار وحدة الذات شركاً في الذات، وإنكار توحيد الخالقية شركاً فيها، وإنكار توحيد الربوبية شركاً فيها وهكذا ...، ولكن لا بأس أن نستعرض الأمر بصورة أكثر تفصيلاً، ولقد استوعب الأقسام بأسلوب واضح شيخ الأساطين الشيخ الأكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء في رسالته في الرد على الوهابية فنقتصر على ما أفاده رحمه الله قال:

(وأقسامه كثيرة:

أولها: كفر الإنكار بإنكار وجود الإله، أو إثبات أنّ غير الله هو الله، أو بإنكار المعاد، أو نبوة نبينا أشرف العباد.

ثانيها: كفر الشرك بإثبات شريك للواحد القهار، أو في النبوة للنبي المختار.

ثالثها: كفر الشك، بالشك في إحدى الثلاثة التي هي أصول الإسلام في غير محل النظر، ولا عبرة بالأوهام.

رابعها: كفر الهتك لهتك حرمة الدين، بالبول على المصحف، أو في

الكعبة، أو سب خاتم النبيين ﷺ .

خامسها: كفر الجحود، بأن يجحد باللسان أصول الإسلام، ويعتقدها بالجنان، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(١) .

سادسها: كفر النفاق، بأن ينكر في الجنان ويقرّ باللسان، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) .

سابعها: كفر العناد، بأن يقر بلسانه ويعتقد بجنانه، ولم يدخل نفسه في ربقة العبودية، بل يتجرأ على الحضرة القدسية، كإبليس (لعنه الله) .

ثامنها: كفر النعمة، بأن يستحقر نعمة الله، ويرى نفسه كأنه ليس داخلاً تحت منّة الله .

تاسعها: كفر إنكار الضروري(٣) .

عاشرها: إسناد الخلق الى غير الله على قصد الحقيقة .

---

(١) سورة النمل: ١٤ .

(٢) سورة البقرة: ٨ .

(٣) كإنكار وجوب الصلاة والصوم والحج، ولا يخفى أن الإنكار غير العصيان مع الاعتراف بالوجوب، فإن محل كلام الشيخ هو إنكار أصل وجوب مثل الصلاة من ضروريات الدين، وأما العصيان بترك الصلاة فهو مع التسليم بأنها واجبة في الإسلام وهذا يوجب الفسق لا الكفر ويقع فيه كثير من المسلمين .

ثم إن في حكم منكر الضروري بحثاً بين الفقهاء ليس محله ها هنا فمن شاء فليراجع .

وليست جميع المعاصي العظام مخرجة عن الإسلام، فإنّ المعاصي لا تنفك على الدوام، حتى في مبدأ حدوث الإسلام، ولذلك وضعت الحدود والتعزيرات، وأقيمت الأحكام على ممر الأوقات .

نعم قد يطلق على كثير منها اسم (الكفر) تعظيماً للذنب، وتحذيراً منه، وتشبيهاً لمؤاخذته، لعظمها بمؤاخذة الكفر(١) .

فهو إذن في الشرع قسمان: كفر صغير، لا يخرج عن اسم الإسلام . وكبير مخرج عن اسمه بلا كلام)(٢) .

---

(١) ففي الكافي ٥: ١٢٦: (عن عمار بن مروان قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن الغلول، قال: كل شيء غل من الإمام فهو سحت، وأكل مال اليتيم وشبهه سحت، والسحت أنواع كثيرة: منها أجور الفواجر، وثمن الخمر والنبيذ المسكر، والربا بعد البينة، فأما الرشا في الحكم فإن ذلك الكفر بالله العظيم وبرسوله ﷺ.

عن أبي الجارود قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينهب نهبة ذات شرف حين ينهبها وهو مؤمن ...

ومثله في البخاري ٢: ٨٧٥ .

وفي المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٤٣ ، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: مراء في القرآن كفر .

وفيه عن أبي هريرة أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: الجدال في القرآن كفر .

(٢) منهج الرشاد ص٥٣٥ .

دوران الأمور مدار النية والاعتقاد

لا يخفى على أحد من العقلاء أن الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيّات، فربما يضيف المتكلم كلمة اليد أو العين أو الجنب إلى الله تعالى، ويكون مجسماً؛ لأنه قصد نسبة هذه المعاني إلى الله تعالى بنحو الحقيقة وبنحو ما تكون في الإنسان، والله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(1).

ولكنّ هذه الألفاظ بعينها تصدر من متكلم آخر ولا يكون مجسّماً؛ لأنه لا يريد منها المعاني التي يراد منها لو أضيفت إلى الإنسان، فلم يحصل الفرق بين الحالتين إلا من جهة النية والقصد، وأما اللفظ فهو نفسه لم يتغير ولم يتبدل في الحالين.

وربما يصدر السجود لغير الله تعالى ولا يكون عبادة لذلك الذي سجد له كما حصل للملائكة مع النبي آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(2)، ولكن ربما يصدر من شخص لآخر ويكون عبادة له كما هو الحال في من يعبد الأصنام، ولا فرق بين العملين إلا بالنية والقصد.

---

(1) سورة الشورى: 11.

(2) سورة البقرة: 34.

فلهذا لو عثر إنسان ووقع على جبهته كهيئة الساجد أمام رجل آخر أو تمثال فلا نسمي ذلك عبادة له، بل ربما يقع الإنسان على جبهته من غير شعور لضعف أصابه أو لأي أمر آخر وهو في حال الصلاة فلا نسمي ذلك عبادة لله تعالى؛ والسبب في ذلك هو أن هذه الأفعال أمور قصدية، ولم تصدر في هذه الصور عن قصد معين ونية معينة .

فما نريد أن نصل له الآن هو أن الفعل الواحد والقول الواحد يختلف من حال إلى حال، أو من شخص لآخر باختلاف القصد والنية، وهو واضح لمن كان له أدنى التفات ورويّة، ويبعث الناس على نياتهم كما روي عن الرسول ﷺ كما في سنن ابن ماجة ومسند أحمد[1] .

وهذا أمر مهم يبتني عليه فهم بعض النقاط الآتية فليكن على ذكر منك، ونشير الآن إلى أن الوهابية يسلّمون بهذا الأصل من حيث يشعرون أو لا يشعرون، فلهذا يفرقون بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر بالاختلاف في الاعتقاد، ولك كلام ابن العثيمين في لبس الحلقة والخيط كمثال، قال:

(ولبس الحلقة ونحوها، إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركاً أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً غيره .

وإن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثراً بنفسه، فهو مشرك شركاً أصغر؛ لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سبباً فقد شارك الله

(١) سنن ابن ماجة ٢: ١٤١٤، ح ٤٢٢٩، مسند أحمد ٣: ٩٩، ح ٨٨٤٦ .

تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب والله تعالى لم يجعله سبباً!)[١].

فأنت ترى في هذا النص أنه قد فرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر بالاعتقاد، وإن كنا لا نوافقه بالحكم على الثاني بأنه مشرك، ولكن ليس الآن محل مناقشته.

وقال صالح الفوزان وهو يتحدث عن أقسام العبادة: (فهي شاملة لكل تصرفات المؤمن إذا نوى بها القربة أو ما يعين عليها. حتى العادات إذا قصد بها التقوّي على الطاعات، كالنوم والأكل والشرب، والبيع والشراء وطلب الرزق والنكاح! فإن هذه العادات مع النية الصالحة تصير عبادات، يثاب عليها، وليست العبادة قاصرة على الشعائر المعروفة)[٢].

فهو قد فرّق في العمل الواحد بين وجهين من القيام به، فجعله عبادة تارة وليس بعبادة أخرى، والمدار في ذلك على النية، فهو فرّق بين النوم العبادي والنوم غير العبادي بالنية، كما فرق بين الأكل والشرب والبيع والشراء والنكاح بين القيام بها عن نية القربة فتكون عبادة، وإن لم يأت بها بهذه النية فهي ليست بعبادة.

وهذا ما نريد أن يتوصل له الوهابية في البحث الذي نحن بصدده، أعني توحيد العبادة، فإن معرفة هذا المطلب ـ أعني دوران الأمر مدار النية ـ مهمة جداً، ويبتني على معرفته دفع إشكالات الوهابية على المسلمين في القيام بالأعمال التي ادّعوا أنها عبادة؛ غفلة منهم عن

---

(١) القول المفيد ص ١٠٢.

(٢) عقيدة التوحيد ص ٦٧.

القصد والنيّة .

معنى العبادة

تقدم القول بعدم اختلاف المسلمين قاطبة في كبرى توحيد العبادة، وأن الجميع ـ بشيعة وسنة ـ متفقون على أنه لا تجوز عبادة غير الله تعالى، وأن عبادة غيره تعالى شرك مخرج عن حظيرة الإسلام.

ولكن اختلفوا في الصغرى، أي في كون بعض الأفعال من العبادة أو لا، كالاستغاثة والاستعانة والتوسل بغير الله ...، فذهب ابن تيمية وأتباعه إلى أنها من عبادة غير الله تعالى، وخالفهم في ذلك سائر المسلمين من الشيعة والسنة، ومفتاح ما أغلق عليهم هو معرفة معنى العبادة، فمتى ما عرفنا معناها الحقيقي الصحيح جعلناه هو الميزان لتمييز عبادة الله تعالى عن عبادة غيره، كما نميّز به العبادة من غيرها من الأعمال التي ليست بعبادة، فلهذه الجهة كان علينا أن نعرّف العبادة بتعريفها الصحيح المتناسب مع مبادئ الإسلام، المستوحى من القرآن والسنة الشريفة، ثم نطبّق التعريف الصحيح على تلك الأفعال، وقبل ذلك علينا القيام بأمرين:

الأول: بيان المراد من العبادة في عنوان البحث.

الثاني: ذكر تعريف أهل اللغة وتعريف ابن تيمية وأتباعه وما يرد عليه من مناقشة.

أما الأمر الأول فنقول:

لا يخفى أن المقصود من كلمة العبادة هنا هو المعنى المصدري أي التعبد، أي الإتيان بالأمر العبادي، ولا يقصد منها الفعل العبادي.

توضيح ذلك :

إنه ربما تطلق كلمة (العبادة) ويراد منها نفس عملية العبادة كالحركات التي يقوم به المصلي في صلاته، أي فعل الصلاة والإتيان بها، وتطلق تارة أخرى ويقصد منها الأمور العبادية، في قبال الأمور التوصلية، فنقول مثلاً: العبادة هي التي يشترط فيها قصد القربة ولا تتحقق بدونها كالصلاة والصوم والحج ...، فمن لم يقصد بصلاته التقرب لله تعالى لا يعدّ ممتثلاً وإن أطال في ركوعه وسجوده، بخلاف الواجبات التوصلية؛ فإنها تتحقق سواء أأتى بها بقصد القربة أم لا كتطهير الثوب ودفن الميت مثلاً.

نعم إذا قصد القربة في الأمور التوصلية نال الثواب على عمله، وأما إذا لم يقصدها فقد امتثل ولكنه لا يستحق الثواب على عمله، ولهذا يفرق بين العبادة والطاعة ما سنشير إليه في ما يأتي إن شاء الله تعالى، وبحثنا الآن في المعنى الأول.

تعريف العبادة لغة :

وأما الأمر الثاني فهو تعريف أهل اللغة للعبادة فنقول: قد عرّفت العبادة في اللغة بالخضوع والتذلل تارة، وبغاية الخضوع تارة أخرى، جاء في مختار الصحاح: (وأصل العبودية الخضوع والذل، والتعبيد التذليل ...)[1].

(١) مختار الصحاح ١: ١٧٢.

وقال أبو هلال العسكري: (١٣٩٦: الفرق بين العبادة والطاعة: أن العبادة غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى ...)[1] .

وقال الراغب في المفردات: (والعبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ...)[2] .

وقال ابن منظور: (وأصل العبودية الخضوع والتذلّل)[3] .

وقال أيضاً: (قال ـ يعني الزجاج ـ: ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد إذا كان مذللا بكثرة الوطء)[4] .

وقال الزبيدي في التاج: (قال ابن الاثير: ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع)[5] .

وقال الشيخ الطريحي في مجمع البحرين: (قال الشيخ أبو علي: العبادة هي غاية الخضوع والتذلل، ولذلك لا تحسن إلا لله تعالى الذي هو مولى أعظم النعم، فهو حقيق بغاية الشكر)[6] .

ومشى على هذا التعريف أو استوحى منه جماعة من المفسرين، منهم على سبيل المثال صاحب تفسير المنار فقد قال: (العبادة ضرب من

(١) الفروق اللغوية: ٣٤٩ .

(٢) المفردات للراغب: ٣٣٠، مادة عبد .

(٣) لسان العرب ٣: ٢٧١ .

(٤) لسان العرب ٣: ٢٧٣ .

(٥) تاج العروس ٢: ٤١٠ .

(٦) مجمع البحرين ٣: ١٠٥ .

الخضوع، بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشؤها، واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها)[1].

وقال الشيخ محمود شلتوت: (العبادة خضوع لا يحد لعظمة لا تحد)[2].

ويدور أمر هذا التعريف اللغوي بين أمرين: أنّ العبادة هي الخضوع المطلق، أو مطلق الخضوع، ولا يمكن الأخذ به في المصطلح الشرعي، أي لا يمكن أن نعتبره تعريفاً صحيحاً للعبادة! وإلا للزمت منه محاذير لا يمكن الالتزام بها لأحد من المسلمين منها:

إن قلنا: بأن العبادة هي مطلق الخضوع فيلزم أن يكون خضوع الولد لوالديه عبادة لهما، وخضوع الجندي للقائد عبادة، وخضوع المأمور للأمير عبادة، وخضوع المملوك للمالك عبادة له، بل خضوع الصديق لصديقه والأخ لأخيه والزوجة لزوجها وهكذا ...، كلها عبادة للمخضوع له، وهذا لا يلتزم به من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر.

بل إن هذا النحو من الخضوع قد أمر الله تعالى به ومدحه في بعض المواطن، قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[3]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ

(١) تفسير المنار ١: ٥٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ٣٧.

(٣) سورة الاسراء: ٢٤.

بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

قال الشيخ الأكبر كاشف الغطاء: (لا ريب أنه لا يراد بالعبادة التي لا تكون إلاّ لله، ومن أتى بها لغير الله فقد كفر، مطلق الخضوع والخشوع والانقياد، كما يظهر من كلام أهل اللغة، وإلا لزم كفر العبيد والأجراء، وجميع الخدام للأمراء، بل كفر الأبناء في خضوعهم للآباء، وجميع من تواضع للإخوان، أو لأحد من أصحاب الإحسان)[2] .

وإن قلنا: بأن العبادة هي الخضوع المطلق، فيلزم منه أن نخرج عبادة أكثر المسلمين عن كونها عبادة وإنما هي صورة عبادة؛ لأن غالب الناس لا يحصل لهم في أثناء صلاتهم وعبادتهم خضوع مطلق لله تعالى، بل ربما يصلي وذهنه في تجارته أو درسه أو مع صديقه أو حتى في الملعب أو متعلق بشيء من أمور الدنيا، ولا يلتفت لنفسه إلا عند قوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فهل نجرّد ما يقوم به عامة المسلمين عن كونه عبادة؟!

ويلزم أن يكون خضوع الإنسان أمام الملك أو الأمير، وخضوع المجرم أمام القاضي أو الجلاد عبادة، لأنه خضوع مطلق، بل إن خضوع عامة الناس أمام أمرائهم أعظم بكثير من خضوعهم في صلواتهم .

فهذا التعريف لا يمكن الأخذ به ولا جعله ميزاناً صحيحاً لمعنى

---

(١) سورة المائدة: ٥٤ .

(٢) منهج الرشاد: ٥٤٠ .

العبادة .

ويرد إشكال آخر على خصوص تعريف صاحب المنار حيث قال في ما نقلنا عنه سابقاً : (... ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشؤها)!!

والإشكال كما حرره الشيخ محمد جواد البلاغي ﷺ : (إن عابد الله يعرف أن منشأ العظمة وملاكها هي السلطة الإلهية ، ولئن كانت فوق إدراكه فباعتبار عمومها لما لا يعدّ ولا يحدّ من الممكنات، لا بما هي سلطة إلهية عظيمة ، يمكن عرفانها ونيلها بالإدراك من هذه الجهة)[1] .

يعني أن دعوى صاحب المنار من عدم معرفة منشأ العظمة التي يستشعرها القلب، غير صحيح؛ بل القلب يعرف أن منشأ هذه العظمة هي السلطة الإلهية العليا ، وعدم معرفة كنهها وحقيقتها إنما هو لقصور الممكن عن الإحاطة بواجب الوجود .

تعريف ابن تيمية وأتباعه للعبادة :

عرّف ابن تيمية العبادة بقوله:

(العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل)[2].

وقال: (العبادة هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء

---

(١) آلاء الرحمن في تفسير الرحمن ١ : ١٣٠ .

(٢) عنه فتح المجيد ص١٤ .

بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة)[١] .

وقال: (فالدعوة والعبادة اسم جامع لغاية الحب لله وغاية الذل له، فمن ذل له من غير حب لم يكن عابداً، بل يكون هو المحبوب المطلق...)[٢] .

وقال صالح الفوزان: (وفي الشرع: لها تعاريف كثيرة، ومعناها واحد ...

منها: أن العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة رسله . ومنها: أن العبادة، معناها: التذلل لله سبحانه فهي: غاية الذل لله تعالى مع غاية حبه، والتعريف الجامع لها هو أن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ...)[٣] .

ونقل الفوزان عن ابن تيمية قوله: (لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى، بغاية الحب له، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ...)[٤] .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠: ١٤٩ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٠: ٦ .

(٣) عقيدة التوحيد ص٦٥ .

(٤) عقيدة التوحيد:٧١، وقال في الهامش: انظر مجموعة التوحيد النجدية ص٥٤٩ .

مناقشة تعريف ابن تيمية :

ويرد على هذا التعريف إشكالات عديدة:

الإشكال الأول: عندما يؤخذ في التعريف غاية الذل فيلزم إخراج أكثر عبادات المسلمين عن العبادة؛ لأنها لا تشتمل على غاية الذل .

الإشكال الثاني: يلزم خروج عبادة أكثر المسلمين؛ لأنها لا تشتمل على غاية الحب .

الإشكال الثالث: يلزم إدخال خضوع الزوجة المحبة لزوجها في تعريف العبادة، فيلزم أن تكون عابدة له؛ لأن الشرطين المذكورين قد تحققا بالنسبة لها، أعني الحب والخضوع .

الإشكال الرابع: يلزم إدخال خضوع المأمور لأميره، والمرؤوس لرئيسه عندما يكون محباً له؛ فهناك الكثير من الرعايا من يحب مليكه أو أميره أو سيده ويفنى في الدفاع عنه، ويخضع له خضوعاً لا يخضعه لأحد، فيلزم أن يكون هؤلاء قد عبدوا رؤساهم!

الإشكال الخامس: يلزم أن يكون الصديق عابداً لصديقه عندما يتذلل له وهو يحبه .

الإشكال السادس: يلزم أن يعبد الولد أبويه حينما يتذلل لهما وهو يحبهما، بل يلزم أن الله تعالى أمره بهذه العبادة! حيث قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ (١) .

بل يلزم أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بعبادة المؤمنين حينما أمره بقوله:

---

(١) سورة الإسراء: ٢٤ .

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[١]، ولا يلتزم بهذا أحد ممن آمن بالله ورسوله .

الإشكال السابع: يلزم أن يدعى بأن الله تعالى قد أمر المؤمنين بعبادة نبيه ﷺ حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[٢]؛ فإن عدم رفع الصوت في محضره ﷺ وعدم الجهر في حضرته خضوع وتذلل وهو مقترن بمحبتهم له ﷺ فيكون ذلك منهم عبادة له!

الإشكال الثامن: يلزم أن يكون تواضع المؤمن لأخيه المؤمن عبادة له، فإن التواضع نوع من الخضوع والتذلل مقترن بالحب! ويكون الآمر بهذه العبادة هو الله تعالى، فتنقلب هذه الصفة الحميدة إلى موبقة شديدة .

الإشكال التاسع: أين الذل ـ فضلاً عن غاية الذل ـ في الإحسان إلى الجار أو الفقير أو إلى البهائم؟!

الإشكال العاشر: يلزم أن تخرج عبادة المشركين عن تعريفهم؛ لأنهم قالوا: (العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه)، وعمل المشركين لأصنامهم لا يحبه الله ولا يرضاه .

إلى كثير من اللوازم الباطلة التي لا يلتزم بها من تذوق حلاوة التفكير السليم، واهتدى إلى الصراط المستقيم .

الإشكال الحادي عشر: أن صاحب هذا التعريف لم يفرق بين

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٥ .

(٢) سورة الحجرات: ٢ .

العبادة والتقرب، فجعل كل عمل مقرّب إلى الله تعالى عبادة! بينما الأمور المقرّبة له تعالى، والتي يثاب عليها العبد من قبله ﷻ على قسمين: عبادة كالصلاة والصوم ...، وغير عبادة كالإحسان إلى الفقير والجار والوالدين ...

فالقسم الأول لا يقع من العبد صحيحاً مقبولاً لله تعالى إلا إذا قصد التقرب إليه تعالى، فالإتيان بها بهذا الوجه هو العبادة التي نبحث عنها هنا .

وأما القسم الثاني فبالإمكان أن يأتي به الإنسان من دون قصد التقرب إلى الله تعالى ويقع صحيحاً إلا أنه لا يثاب عليه أبداً من قبل الله تعالى؛ لأنه لم يقصد بهذا العمل وجه الله تعالى، كما يفعل المراؤون والكفار والمشركون في أعمالهم الإحسانية كالعطف على اليتيم وإعطاء الفقير وإطعام المحتاجين ...، وربما يأتي الإنسان المؤمن بهذه الأمور ويقصد بذلك العمل وجه الله تعالى، فيطعم المؤمن وينقذ الغريق ويحسن إلى الفقير ويرحم الضعيف قربة إلى الله تعالى، فيثاب على هذا العمل تفضلاً من الله تعالى عليه، ولا يعتبر عمله عبادة؛ فإنه لا يقال لمن مسح على رأس يتيم عطفاً ورأفة وتحنناً أنه أتى بعبادة .

ولا يقال لمن غسل ثوبه من النجاسة أنه أتى بعبادة .

ولا يقال لمن أكل وشرب ونام بقصد التقوّي على الطاعة أنه أتى بعبادة .

ولا يقال لمن ذهب للسوق ليشتري ويبيع أنه أتى بعبادة وإن قصد بذلك الطاعة .

والخلاصة: إن هناك فرقاً بين العبادة والطاعة، فكل عبادة طاعة، وليست كل طاعة عبادة، وهذه الأمور ـ التي يثاب عليها الإنسان إذا أتى بها على وجه القربة لله تعالى ـ طاعة وليست عبادة، وهذا واضح لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وعلى هذا فكلام صالح الفوزان الآتي ذكره الآن خارج عن الاعتبار والميزان، قال في أنواع العبادة:

(فهي شاملة لكل تصرفات المؤمن إذا نوى بها القربة أو ما يعين عليها. حتى العادات إذا قصد بها التقوّي على الطاعات، كالنوم والأكل والشرب، والبيع والشراء وطلب الرزق والنكاح! فإن هذه العادات مع النية الصالحة تصير عبادات، يثاب عليها، وليست العبادة قاصرة على الشعائر المعروفة)[1].

ولو استطاع أن يفرق بين العبادة والطاعة لما وقع في هذا الخلط بين مصاديق المفهومين.

التعريف الصحيح للعبادة:

بعد أن عرفنا أن التعريفين السابقين للعبادة خاطئان جداً، ويستلزمان لوازم فاسدة لا يمكن للمسلم الالتزام بها أبداً، حان الوقت لأن نذكر التعريف الصحيح للعبادة، والتعريف الصحيح لها أضيق دائرة مما ذهب إليه أهل اللغة وابن تيمية وأتباعه، وعلينا قبل ذلك أن ننبّه على أمرين:

أولهما: ما بيّناه سابقاً حول النية، فإن العبادة ـ كغيرها من الأعمال

---

(١) عقيدة التوحيد: ٦٧.

القصدية ـ تدور مدار النية والقصد، ومن الواضح لكل ذي عقل ولب أن للنية دوراً كبيراً في تصنيف الأمور وتنوّعها، فيكون الفعل الواحد الصادر من شخصين، أو من شخص في زمانين، متصفاً بأمرين مختلفين، فربما يقوم الجالس لمن دخل المجلس احتراماً له فيكون قد أكرمه، ويقوم آخر من مجلسه ليخرج منه ولا يجالس القادم فيكون قد أهانه، ولا فرق بين الأمرين إلا بالقصد، وأمثلة ذلك كثيرة، وقد أوضحنا ذلك قبل أوراق مضت، واعترف بهذا المعنى شيوخ الوهابية أيضاً كما نقلنا بعض كلماتهم.

والآخر: ما نبّه عليه العلامة الكبير الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي في كتابه المناظرات بقوله: (وحقيقة العبادة ما ظهرت به العبودية التي هي ضد الربوبية والإلوهية فلابدّ في تحقيقها ـ مفهوماً ومصداقاً ـ من اتخاذ من أتيت له إلهاً، فلو انتفى الاتخاذ انتفى موضوع العبادة)[1].

وبملاحظة هذين الأمرين وغيرهما سنقول في تعريف العبادة:

هي الخضوع ـ قولاً أو فعلاً ـ الناشئ عن اعتقاد إلوهية المخضوع أو ربوبيته أو بكونه مستقلاً في فعله.

فعندما يخضع الإنسان بقوله أو بفعله لأحد، معتقداً بإلوهيته، أو بكونه رباً، أو بكونه مالكاً مستقلاً لتصرفه، أي يتصرف بنفسه وباستقلال عن الله تعالى، فهذا العمل أو القول الصادر من الخاضع عبادة للمخضوع له، فالملاحظ أنا ذكرنا قيوداً مقوّمة لتحقق العبادة، فما لم توجد هذه القيود أو أحدها لا يسمى العمل أو القول عبادة،

---

(١) المناظرات: ٦٢.

وهذه القيود هي:

١- أن يكون الخضوع ناشئاً عن الاعتقاد بإلوهية المخضوع له .

٢- أن يكون الخضوع ناشئاً عن الاعتقاد بربوبية المخضوع له[1] .

٣- أن يكون الخضوع ناشئاً عن الاعتقاد باستقلال المخضوع له بالتصرف .

فمتى ما تحقق أحد هذه الخضوعات الثلاثة فهو خضوع عبادة، وليس بالضرورة الاعتقاد باجتماع هذه الأمور الثلاثة في تحقيق مفهوم العبادة، بل يكفي الاعتقاد بأحدها لصحة انطباق مفهوم العبادة على الخضوع العملي أو القولي، والدليل على أخذ أحد هذه القيود في تحقق العبادة يتضح بذكر كل قيد على حدة فأولاً:

الدليل على قيد الاعتقاد بالإلوهية :

لا يختلف اثنان من المسلمين في كون الخضوع لمن يراه إلهاً عبادة، ومن يقرأ الآيات الكريمة بتدبر وإمعان يعرف أن الخضوع بالقول أو بالعمل الناشئ عن الاعتقاد بالإلوهية عبادة، وعليك بتلاوة الآيات التي أمرت بعبادة الله تعالى ونبذ عبادة غيره سبحانه لكونه الإله وما لهم من إله غيره، لتعرف صحة هذه الدعوى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ

(١) وقد فرقنا بين الإلوهية والربوبية فيما تقدم فلا تغفل .

(٢) سورة الأعراف: ٥٩، وراجع أيضاً آية ٦٥، ٧٣، ٨٥ .

﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[١] .

وما ينبغي الالتفات إليه هو أن عرب الجاهلية بل مطلق الوثنيين وعبدة الشمس والكواكب كانوا يعتقدون بإلوهية معبوداتهم، ويتخذونهم آلهة بنحو من الأنحاء صغاراً أو كباراً، وقدمنا بعض الكلام في ذلك، ونقول الآن: إن الكثير من الآيات الكريمة شاهد صدق على ما نقول، وإليك بعضها:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[٢] ، وقال: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾[٤]، وقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[٥]، وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٦]، وقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[٧] وقال: ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا

(١) سورة المؤمنون: ٣٢ .

(٢) سورة الحجر: ٩٦ .

(٣) سورة المؤمنون: ١١٧ .

(٤) سورة ق: ٢٦ .

(٥) سورة الأنعام: ١٩ .

(٦) سورة الأنعام: ٧٤ .

(٧) سورة الإسراء: ٤٢ .

يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[1]، وقـال: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾[2]، وقـال: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[4]، وقـال: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾[5]، وقال: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾[6]، وقال: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[7].

يقول الشيخ السبحاني ـ بعد أن استعرض بعض الآيات المتقدمة ـ:

(فهذه الآيات تشهد على أن دعوة المشركين كانت مصحوبة بالاعتقاد بإلوهية أصنامهم، وقد فسر الشرك في بعض الآيات بـ (اتخاذ الإله) مع الله وذلك عندما يقول سبحانه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[8].

---

(١) سورة الكهف: ١٥ .

(٢) سورة مريم: ٨١ .

(٣) سورة الأنبياء: ٩٩ .

(٤) سورة الفرقان: ٣ .

(٥) سورة يس: ٧٤ .

(٦) سورة الصافات: ٨٦ .

(٧) سورة ص: ٥ .

(٨) سورة الحجر: ٩٤ـ٩٦ .

ولذلك يفسر القرآن حقيقة الشرك بـ(اعتقادهم بإلوهية معبوداتهم)؛ إذ قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] .

ففي هذه الآية جعل اعتقادهم بإلوهية غير الله هو الملاك للشرك، والمراد هنا (الشرك في العبادة) .

وبمراجعة هذه الآيات ونظائرها التي تعرضت لموضوع الشرك وبالأخص لموضوع شرك الوثنيين تتجلى هذه الحقيقة ـ بوضوح تام ـ أن عبادتهم كانت مصحوبة مع الاعتقاد بإلوهيتها، بل يمكن استظهار أن شركهم كان لأجل اعتقادهم بإلوهية معبوداتهم، ولأجل ذاك الاعتقاد كانوا يعبدونهم ويقدمون لهم النذور والقرابين وغيرهما من التقاليد والسنن العبادية .

وبما أن كلمة التوحيد تهدم عقيدتهم بإلوهية غيره سبحانه، كانوا يستكبرون عند سماعه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] .

أي يرفضون هذا الكلام، لأنهم يعتقدون بإلوهية معبوداتهم، ويعبدونها لأجل أنها آلهة ـ حسب تصورهم ـ ...)[3] .

ولهذا قال العلامة البلاغي: (لا يزال العوام والخواص يستعملون لفظ العبادة على رسلهم ومجرى مرتكزاتهم على طرز واحد، كما يفهمون ذلك المعنى بالتبادر، ويعرفون بذوقهم مجازه ووجه التجوز فيه .

---

(١) سورة الطور: ٤٣ .

(٢) سورة الصافات: ٣٥ .

(٣) التوحيد والشرك في القرآن الكريم: ص ٧٣ .

وإن المحور الذي يدور عليه استعمالهم وتبادرهم هو أن **العبادة ما يرونه مشعراً بالخضوع لمن اتخذه الخاضع إلهاً** ليوفيه بذلك ما يراه له من حق الامتياز بالإلهية، أو بعنوان أنه رمز أو مجسمة لمن يزعمونه إلهاً، تعالى الله عما يشركون)[١] .

الدليل على قيد اعتقاد الربوبية :

الرب ـ كما تقدم معناه ـ هو المالك المتصرف، والمقصود من الملكية هنا الملكية الحقيقية الناشئة عن الخلق والتكوين، أو كون شأن من شؤون حياته في قبضته وتحت يده عاجلاً أو آجلاً يتصرف بها كيف يشاء وأنّى شاء من الحياة والإماتة والرزق والتقدير ... عن استقلال منه بكل ذلك، وليس المراد بها الملكية الاعتبارية كملكية الناس لمنازلهم أو عبيدهم وأرقائهم؛ فإنها ملكية زائلة غير دائمة، وبإمكان العبد التمرد والعصيان عليها في كل وقت وآن .

فخضوع الإنسان ـ بالقول أو بالفعل ـ أمام الآخر باعتقاد أنه رب ويملك شأناً من شؤون حياته الدنيوية أو الأخروية عن استقلال، عبادة لذلك المخضوع له، والرب بالمعنى المتقدم مختص بالله تعالى كما تقدم الكلام فيه، ولهذا قال تعالى في محكم كتابه العزيز:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١ : ١٢٧ .

(٢) سورة مريم: ٩٣ .

وَكِيلٌ ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٢] .

وبما أن الله تعالى هو الرب الحقيقي، والمالك المستقل في تصرفه عن أي جهة كانت، جاءت الآيات الآمرة بعبادته وحده لكونه الرب لا غيره، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٦] .

الدليل على قيد الاعتقاد باستقلال المخضوع له بالتصرف :

إن الاستقلال في الوجود والفعل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، لا يشاركه فيها أحد، ولهذا وصف الله تعالى نفسه بأنه القيوم، أي القائم بنفسه، المنزهة ساحة قدسه عن الفقر والحاجة إلى الغير.

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٢ .

(٢) سورة الزمر: ٤٤ .

(٣) سورة البقرة: ٢١ .

(٤) سورة الحج: ٧٧ .

(٥) سورة الأنبياء: ٩٢ .

(٦) سورة المائدة: ١١٧ .

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[3].

وأما سائر الخلق فهم المحتاجون إليه المفتقرون إلى غناه في وجودهم وبقائهم ورزقهم وفي كل شيء، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾[5].

وعليه فمن خضع لآخر على أنه مستقل في وجوده أو في فعله فهو عبادة للمخضوع له.

والخلاصة:

أن العبادة للغير لا تتم إلا عن طريق الاعتقاد بأن المخضوع له يتصف بهذه الأمور الثلاثة أو أحدها: (**الإلوهية، الربوبية، الاستقلال بالتصرف**)، فمن خضع لغير الله تعالى وهو معتقد بأحد هذه الأمور في من خضع له فهو مشرك بلا ريب، وأما لو خضع لغير الله تعالى احتراماً وهو يعتقد بأن المخضوع له إنسان مثله ليس له من الأمر شيء،

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) سورة آل عمران: ٢.

(٣) سورة طه: ١١١.

(٤) سورة فاطر: ١٥.

(٥) سورة محمد: ٣٨.

ليس إلهاً ولا رباً ولا مستقلاً في وجوده ولا في فعله عن الله تعالى، بل يخضع له لكونه ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[(1)] فليس ذلك الخضوع بعبادة أبداً، ولا يعتبر الخاضع مشركاً.

نعم ربما يكون الفعل حراماً، والحرمة شيء، والشرك شيء آخر وكلامنا في الشرك لا في الحرمة، وقد خلط الوهابية بين الأمرين فاعتبروا ما يكون حراماً شركاً، فأخطئوا مرتين: مرة في جعلهم ما ينبغي أن يبحث عن حليته وحرمته شركاً، فنقلوا المسألة من الفروع إلى الأصول، ومرة أخرى في فراغهم من كون ما يأتي به المسلمون حراماً.

ومن أمثلة الأفعال المحرمة في شريعة الإسلام السجود لغير الله تعالى، فلو سجد العاشق لمعشوقته، أو المرأة لزوجها من دون النية التي شرحناها لا يعتبر ذلك عبادة، ولكنه حرام.

ولا يخفى أن ما يقوم به المشركون تجاه معبوداتهم عبادة لها؛ لكونهم ناوين ذلك معتقدين بأحد هذه الأمور في معبوداتهم، ولهذا ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾[(2)]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(3)]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ

---

(١) سورة الأنبياء: ٢٦ـ٢٧.

(٢) سورة الشعراء: ٧١.

(٣) سورة الزمر: ٣.

مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[١] .

فهم يصرحون بأنهم يعبدون أصنامهم، مع أنهم يعتقدون بكونهم يملكون شيئاً من التدبير كما مرَّ توضيح اعتقادهم سابقاً .

وسوف يجرنا الحديث هنا للكلام حول الطاعة والخضوع وأقسامهما ليتجلى الأمر كالصبح المشرق، ويستبين الفرق بين العبادة والخضوع بقول مطلق، وتنجاب غاشية الظلام، ويرتفع الالتباس والإبهام فنقول:

أقسام الطاعة :

إن طاعة غير الله تعالى تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن تكون طاعته بأمر من الله تعالى كما في طاعة الرسول ﷺ وطاعة الأئمة من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام كما هو المعتقد الحق، وهذا يرجع في الحقيقة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، فهو واجب أيضاً بحكم العقل[٢].

---

(١) سورة هود: ٦٢ .

(٢) أما رجوعه إلى طاعة الله تعالى فلأنه هو الذي أمر بإطاعتهم.

وأما كونه بحكم العقل فلأن العقل هو الذي يدرك لزوم طاعة الله تعالى، ولو لم يدرك ذلك لما تحقق امتثال شيء من الأوامر الإلهية؛ إذ لا يوجد حينئذ دليل على لزوم امتثال وطاعة الله تعالى.

ولا يتوهم كفاية الأمر في مثل قوله تعالى: { أطيعوا الله } ؛ لأن هذه الآية وإن كانت أمراً بالإطاعة، ولكن يأتي السؤال: ما هو الدليل على لزوم طاعة هذا الأمر الوارد في هذه الآية؟

إن قلت: دليل آخر يأمر بطاعة هذا الأمر ولزوم امتثاله، عاد السؤال إلى ذلك

قال عز من قائل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٢) .

ومن أجل ذلك قرن الله طاعة رسوله بطاعته في كل مورد أمر فيه بطاعته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٥) ، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٦) ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(٧) .

الأمر الآخر وهكذا.. فلا تنتهي السلسلة.

فلابد ـ لكي يرتفع هذا المحذور ـ من الرجوع في لزوم الطاعة إلى حكم العقل بذلك، أي يصدر الأمر من المولى تعالى، والعقل هو الذي يدرك لزوم طاعة هذا الأمر، وما ورد من الشارع إرشاد إلى ذلك الحكم العقلي.

(١) سورة النساء: ٨٠ .

(٢) سورة النساء: ٦٤ .

(٣) سورة النساء: ١٣ .

(٤) سورة النساء: ٦٩ .

(٥) سورة الأحزاب: ٧١ .

(٦) سورة آل عمران: ٣٢ .

(٧) سورة النساء: ٥٩ .

القسم الثاني: أن تكون إطاعة غير الله منهياً عنها، كإطاعة الشيطان، وكل من يأمر بمعصية الله، ولا شك في حرمة هذا القسم شرعاً، وقبحه عقلاً، بل تكون كفراً وشركاً، كما إذا أمر بالشرك أو الكفر.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾(٤).

القسم الثالث: أن تكون إطاعة غير الله مجردة، لا أمر بها من الله ولا نهي، وهي حينئذ تكون جائزة، لا واجبة ولا محرمة كإطاعة الأخ لأخيه والصديق لصديقه في أمورهم العادية ما لم ينطبق عليها عنوان آخر واجب أو محرم.

أقسام الخضوع:

كما أن الطاعة على أقسام ثلاثة فكذلك الخضوع وهي:

القسم الأول:

---

(١) سورة الأحزاب: ١.

(٢) سورة الحزاب: ٤٨.

(٣) سورة الإنسان: ٢٤.

(٤) سورة لقمان: ١٥.

الخضوع لمخلوق من دون إضافة ذلك المخلوق إلى الله بإضافة خاصة، وذلك كخضوع الخادم لسيده، والمتعلم لمعلمه، وغير ذلك من الخضوع المتداول بين الناس، ولا ينبغي الشك في جواز هذا القسم ما لم يرد فيه نهي كالسجود لغير الله، بل جواز هذا القسم مقتضى الضرورة، وليس فيه أدنى شائبة للشرك .

القسم الثاني :

الخضوع للمخلوق باعتقاد أن له إضافة خاصة إلى الله يستحق من أجلها أن يخضع له، مع كون الاعتقاد باطلاً في الواقع، وأن هذا الخضوع بغير إذن من الله كما في خضوع أهل الأديان والمذاهب الفاسدة لرؤسائهم، ولا ريب في أنه إدخال في الدين ما لم يكن منه، فهو تشريع محرم بالأدلة الأربعة، وافتراء على الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1] .

القسم الثالث :

الخضوع للمخلوق والتذلل له بأمر من الله وإرشاده، كما في الخضوع للنبي ﷺ، ولأوصيائه الطاهرين عليهم السلام، بل الخضوع لكل مؤمن، أو كل ما له إضافة إلى الله توجب له المنزلة والحرمة، كالمسجد والقرآن والحجر الأسود، وما سواها من الشعائر الإلهية، وهذا القسم من الخضوع محبوب لله فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

(١) سورة يونس: ١٧ .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

بل هو لدى الحقيقة خضوع لله، وإظهار للعبودية له، فمن اعتقد بالوحدانية الخالصة لله، واعتقد أن الإحياء والإماتة والخلق والرزق والقبض والبسط والمغفرة والعقوبة كلها بيده، ثم اعتقد بأن النبي ﷺ وأوصياءه الكرام عليهم السلام : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وتوسل بهم إلى الله، وجعلهم شفعاء إليه بإذنه، تجليلاً لشأنهم وتعظيماً لمقامهم، لم يخرج بذلك عن حد الإيمان، ولم يعبد غير الرحمن[3] .

فإذا اتضحت لك حقيقة العبادة فأصبحت ظاهرة كالشمس في ألق النهار، وزالت عنها غشاوة العتمة والظلمة، فلك أن تطبقها على أفعال المسلمين، لتعرف أن أفعالهم تجاه غير الله تعالى من الأولياء والصالحين، ليست بعبادة لهم ولم يكونوا يوماً من المشركين، بل هم يعبدون الله تعالى مخلصين له الدين، فلم ولن تراهم يقصدون عبادة أحد غير الله تعالى، ولا يعتقدون في أحد من البشر أحد الأمور الثلاثة الموجبة للعبادة والشرك .

---

(١) سورة المائدة: ٥٤ .

(٢) سورة الأنبياء: ٢٦ـ٢٧ .

(٣) استفدنا هذا البحث والبحث السابق عليه من كتاب البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي ؓ ص٤٩٩ وما بعدها، مع اختصار طفيف جداً وإضافة شواهد .

وسنمضي مع ابن تيمية وأتباعه في الأفعال التي تصدر من المسلمين، ونطبق التعريف عليها لتتضح لذي عينين، ولكن سنذكر أموراً مهمة في المقام تعد إضاءات لذوي العقول والأفهام:

إضاءات

الإضاءة الأولى: في استعمالات لفظة العبادة في الكتاب العزيز :

قال العلامة البلاغي ﵀: (وإن لفظ العبادة وما يشتق منه كعَبَد ويعبُد، لا تجدها مستعملة على وجه الحقيقة إلا فيما ذكرناه من معاملة الإنسان لمن يتخذه إلهاً معاملة الإله المستحق لذلك بمقامه في الإلهية، ولم أجدها في القرآن الكريم مستعملة في غير ذلك إلا في ثلاثة موارد، ولكنها لم تخرج عن النظر إلى مناسبة المعنى الحقيقي المذكور والتجوز بلفظه، وهي:

المورد الأول: قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾[1].

المورد الثاني: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[2].

فاستعير اسم العبادة للطاعة العمياء للشيطان على الدوام ـ كما يلقي المؤمنون قياد طاعتهم لله على بصيرة من أمرهم ـ لأنه إلههم على

---

(١) سورة مريم: ٤٤ .

(٢) سورة يس: ٦٠ .

نحو التجوز الواقع في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[١]، والجاثية: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[٢]، فإنهم لم يكونوا يعبدون الشيطان، ولم يتخذوا هواهم إلهاً على سبيل الحقيقة.

المورد الثالث: قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ فَقَالُوٓاْ ـ أي فرعون وملؤه ـ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾[٣]، أي دائبون على العمل في تسخيرنا، كما يدأب المؤمن في طاعة الله وعبادته، أو باعتبار أن فرعون كان يدّعي الإلهية، فجعلوا بالتشبيه والتمويه خضوع بني إسرائيل بالقهر والغلبة عبادة لفرعون هذا)[٤].

الإضاءة الثانية: في السجود لغير الله في شريعة الإسلام :

إن السجود في حد نفسه بدون أن يتعنون بأحد العناوين الثلاثة المتقدمة، ليس من العبادة في شيء، وأن من يقوم به لغير الله تعالى ليس بمشرك وإن ارتكب محرماً كما سبق القول به، ولو كان السجود في نفسه عبادة ـ حتى لو صدر بدون اعتقاد إلهية من سجد له ولا ربوبيته ولا استقلاله في فعله ـ للزم القول بأن الملائكة قد أشركوا حينما سجدوا لآدم عليه السلام! ويلزم أن الله تعالى هو الذي أمرهم بالشرك! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو القائل سبحانه: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ

(١) سورة الفرقان: ٤٣.

(٢) سورة الجاثية: ٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: ٤٧.

(٤) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ١٢٨ـ١٢٩.

عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

والشرك من الفحشاء، فهل يا ترى يأمر الله تعالى به؟!

ويلزم وقوع النبي يعقوب عليه السلام وأخوة يوسف في الشرك عندما سجدوا له، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾[٣]، إشارة منه عليه السلام إلى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾[٤].

ولعمري إن هذا من الواضحات التي لا غبار عليها لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولبيان ذلك بصورة أوضح ننقل ما أفاده السيد الخوئي رحمه الله في تفسيره البيان حيث قال تحت عنوان (السجود لغير الله):

(لقد اتضح مما قدمنا أن الخضوع لأي مخلوق إذا نهي عنه في الشريعة لم يجز فعله، وإن لم يكن على نحو التأله، ومن هذا القبيل السجود لغير الله، فقد أجمع المسلمون على حرمة السجود لغير الله،

---

(١) سورة الأعراف: ٢٨ .

(٢) سورة النحل: ٩٠ .

(٣) سورة يوسف: ١٠٠ .

(٤) سورة يوسف: ٤ .

قال عزَّ من قائل ...[(١)]

فإن المستفاد منه أن السجود مما يختص بالخالق، ولا يجوز للمخلوق ...

وكيف كان فلا ريب في هذا الحكم وأنه لا يجوز السجود لنبي أو وصي فضلاً عن غيرهما .

وأما ما ينسب إلى الشيعة الإمامية من أنهم يسجدون لقبور أئمتهم، فهو بهتان محض، ولسوف يجمع الله بينهم وبين من افترى عليهم وهو أحكم الحاكمين .

ولقد أفرط بعضهم في الفرية، فنسب إليهم ما هو أدهى وأمض، وادّعى أنهم يأخذون التراب من قبور أئمتهم، فيسجدون له! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

وهذه كتب الشيعة: قديمها وحديثها، مطبوعها ومخطوطها، وهي منتشرة في أرجاء العالم متفقة على تحريم السجود لغير الله، فمن نسب إليهم جواز السجود للتربة فهو إما مفترٍ يتعمد البهت عليهم، وإما غافل لا يفرق بين السجود لشيء والسجود عليه ...)[(٢)] .

---

(١) سورة فصلت: ٣٧ .

(٢) البيان في تفسير القرآن ص٥٠٤ باختصار، ونقل السيد الخوئي ﵀ في قسم التعليقات التعليقة رقم١٨ إحدى مفتريات الألوسي على الشيعة لا بأس بنقلها؛ ليتضح للقارئ مدى الإعلام المضاد، ومقدار ما يتمتع به علماء السنة من الأمانة والصدق لا سيما في حق من خالفهم في المذهب .

قال الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ سورة البقرة: ١٨٧ : إن الشيعة يجوزون الأكل والشرب إلى طلوع

السجود لآدم :

وأما سجود الملائكة لآدم فاختلف العلماء فيه على أقوال:

القول الأول: إن سجود الملائكة هنا بمعنى الخضوع، وليس بمعنى السجود المعهود .

والجواب عنه أنه خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه إلا بقرينة دالة عليه وهي مفقودة هنا .

القول الثاني: إن سجود الملائكة كان لله تعالى، وإنما كان آدم قبلة لهم، كما يقال: صلى للقبلة، أي إليها، وقد أمر الله ملائكته بالتوجه لآدم حال السجود إليه تعالى تكريماً وتعظيماً لآدم .

والجواب عنه: أنه تأويل يخالف ظهور الآية، كما ينافيه إباء إبليس عن السجود وتكبره عنه بادعائه أنه أشرف من آدم فكيف يسجد له! ولو كان آدم مجرد قبلة والسجود إنما هو لله تعالى لما كان لامتناعه وجه؛ إذ ربما يكون الساجد أشرف من المتوجه إليه كما هو الحال في نبينا محمد ﷺ والكعبة المشرفة، فهو أشرف منها ويتوجه إليها حال

الشمس .

قال السيد الخوئي ﵀ معلقاً على قوله: (ولست أدري إلى أي سناد استند في هذه النسبة! وهو في بغداد عاصمة العراق، والعراق مقر الشيعة قديماً وحديثاً، ولاسيما إن المشاهد المشرفة قريبة من بغداد، وقلّ من يوجد من غير الشيعة فيها، أضف إلى ذلك أن الآلوسي لم يكن بعيداً من كتب الشيعة ومؤلفاتها .

ولعمري: إن هذه النسبة وأمثالها هي التي فرقت بين المسلمين، وحكّمت عليهم أعدائهم، ولعلها كانت دسائس أجنبية) ص٥٦٠ .

الـصلاة، فـلا يكـون لقولـه: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[(١)]، ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾[(٢)]. معنى.

القول الثالث: إن السجود كان لآدم عليه السلام ولكنه لما كان بأمر من الله تعالى فهو في الحقيقة خضوع لله تعالى.

بيان ذلك: إن السجود هو الغاية القصوى للتذلل والخضوع، ولذلك قد خصه الله بنفسه، ولم يرخص عباده أن يسجدوا لغيره، وإن لم يكن السجود بعنوان العبودية من الساجد، والربوبية من المسجود له، غير أن السجود لغير الله إذا كان بأمر من الله كان في الحقيقة عبادة له تعالى وتقرّباً إليه، لأنه امتثال لأمره، وانقياد لحكمه، وإن كان في الصورة تذللاً للمخلوق، ومن أجل ذلك يصح عقاب المتمرد عن هذا الأمر، ولا يسمع اعتذاره بأنه لا يتذلل للمخلوق، ولا يخضع لغير الآمر.

وهذا هو الوجه الصحيح: فإن العبد يجب أن لا يرى لنفسه استقلالاً في أموره، بل يطيع مولاه من حيث يهوى ويشتهي، فإذا أمره بالخضوع لأحد وجب عليه أن يمتثله، وكان خضوعه حينئذ خضوعاً لمولاه الذي أمره به[(٣)].

الإضاءة الثالثة: في فعل الله تعالى، وفعل المخلوق:

لا يخفى على أحد من المسلمين أن هناك أفعالاً يختص صدورها بالله تعالى بحسب الموازين الطبيعية، وأفعالاً لا تختص به سبحانه

---

(١) سورة الأعراف: ١٢.

(٢) سورة الإسراء: ٦١.

(٣) راجع البيان في تفسير القرآن: ٥٠٦.

بحسب الموازين الطبيعية، بل يمكن صدورها من عبيده ومخلوقاته، ومن هذا المنطلق دخل ابن تيمية وأتباعه في هذا الموضوع من غير رويّة فحملوا الأمور الخارجة عن طبيعة البشر على أنها من أفعال الله الخاصة، فلهذا اتهموا بالشرك من يطلبها من غيره تعالى حتى لو عرف قصده من طلبه، واعتقاده في عمله!

ولكي تتضح حقيقة الحال نبين هذا الأمر بذكر نقاط:

النقطة الأولى: إن الله تعالى هو الغني المطلق الذي لا يحتاج لأحد في وجوده ولا في فعله، وهذا مما لا ريب فيه عند أحد من المسلمين، ولكن جرت إرادة الله وحكمته على أن يجري المسببات بأسبابها، لا لحاجة منه إليها.

النقطة الثانية: إن الله تعالى خلق الخلق وأوجد فيهم القدرة والقوة على القيام بأمور كثيرة، كما أنه لم يودع فيهم القدرة على أمور أخرى، مع تفاوت بينهم في تلك القدرة المودعة فيهم. وأي مخلوق في العالم - أياً كانت قدرته - لا يمكنه القيام بأي عمل - صغيراً كان أو كبيراً - إلا بإقدار من الله تعالى ومدده، فمنشأ القدرة هو الله تعالى واستمرارها بيده، تدور مدار إرادته، وليس للمخلوق إلا أن يُعْمل هذه القدرة أو لا يُعْملها بإرادته واختياره، ومتى ما انقطع عنه المدد الإلهي يبقى عاجزاً عن القيام بأصغر الأمور وإن تظاهرت معه الإنس والجن، فأنت ترى الفيل الضخم وهو يحمل الأثقال العظيمة يعجز عن الحركة والمشي عندما يسلبه الله تعالى تلك القوة المودعة فيه، بل يبقى والصخرة الصماء سواء بسواء.

النقطة الثالثة: إن هذه القدرة المودعة في المخلوق - الإنسان أو غيره -

متفاوتة الشدة والضعف، فقوة الفيل أقوى بكثير من قوة الإنسان، فضلاً عن قوة غيره من الحيوانات الضعيفة، بل قوة الإنسان تختلف باختلاف الأشخاص، فهناك الرجل البطل، وهناك المتوسط، وهناك الضعيف الذي لا يقدر على شيء، وكل ذلك إنما حصل لحكمة ارتضاها الله تعالى في خلقه: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1] .

النقطة الرابعة: إن الاختلاف في القوة والاستعداد لا يقتصر على الأمور البدنية كحمل الأثقال، وافتراس الأبطال، بل هذا الاختلاف موجود في الأمور النفسية والذهنية أيضاً، فمن النفوس من تتحمل أشد أنواع الابتلاءات فتصبر عند فقد الأحبة والأولاد، وتصمد أمام الزلازل والأهوال، ومن النفوس من لا تتحمل أضعف الأمور، فيتأثر صاحبها من كل شيء، وينهار أمام كل نازلة، وقد رزق الله تعالى طائفة من البشر عقولاً نيرة ذات شفافية عالية تذهل الآخرين بعبقريتها وتوقدها، وقد سلب عن آخرين هذه الجوهرة الثمينة بأدنى صورها فأصبحوا مجانين .

وكل هذه الأمور ترجع إلى القدرة التي أودعها الله في المخلوق حسب المصلحة الإلهية العليا المخفية على أكثر الناس .

النتيجة:

إن أفعال الله تعالى هي الأفعال الناشئة عن استقلال بلا احتياج للغير، فإن الله تعالى يفعل ما يشاء بقدرته: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا

(١) سورة آل عمران: ٤٠ .

قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(١)] ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(٢)] ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(٣)] .

وأما أفعال غيره تعالى فهي الأفعال الصادرة من العبد بقدرة من الله تعالى، ولا تصدر من المخلوق عن استقلال، بل كل ما يصدر من العبد فهو بإذن من الله؛ لما بيّناه من أن المخلوق لا يقدر على شيء إلا بالقدرة المودعة فيه من قبل الباري ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[(٤)] ، وقال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[(٥)] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٦)] ، وقال تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[(٧)] ، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ

(١) سورة البقرة: ١١٧ .

(٢) سورة النحل: ٤٠ .

(٣) سورة يس: ٨٢ .

(٤) سورة البقرة: ١٠٢ .

(٥) سورة البقرة: ٢٥١ .

(٦) سورة آل عمران: ١٦٦ .

(٧) سورة الأنفال: ٦٦ .

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَٰسِقِينَ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٤].

وزبدة المخض هي: أن الملاك في التفريق بين أفعال الله وأفعال غيره، بحيث نقول: هذا فعل الله ولا يصدر من العبد، وذاك فعل يصدر من العبد هو الاستقلال وعدمه، ففعل الله تعالى هو الذي يصدر عن استقلال، وفعل المخلوق لا يصدر إلا بقوة من الله تعالى، فمتى ما نسب الفعل إلى العبد باعتقاد أنه مستقل فيه فهو نسبة فعل الله إلى غيره، والطلب منه على هذا الأساس شرك، بدون أن نفرق بين الأفعال صغيرها وكبيرها، مخفيها وظاهرها، العادي منها وغيره، فإن فعل العبد مطلقاً يحتاج إلى قوة مودعة من الله تعالى فيه، فربما يودع في إنسان قوة يخترق بها الحجب، ولا يعطي الآخر إلا قوة عادية تعينه في قضاء حوائجه العادية، وربما يسلب عن ثالث حتى هذا المقدار فيستعين في قضاء حوائجه كلها بغيره، وهذه تدور مدار قدرته

---

(١) سورة فاطر: ٣٢ .

(٢) سورة المجادلة: ١٠ .

(٣) سورة الحشر: ٥ .

(٤) سورة التغابن: ١١ .

وحكمته وسعة عطائه في بريته: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[1] .

ومن هذا البيان يتضح أن اتهام الوهابية لغيرهم بالشرك ـ عندما يطلبون شيئاً من المخلوق، عصيّاً على سائر الناس ـ بتبرير أنه فعل الله، اتهام باطل وقول بغير حق؛ لأن المسلمين لم يطلبوا من المخلوق شيئاً غير مقدور لسائر الخلق على أنه قادر على فعله بنفسه مستقلاً عن الله تعالى، بل يطلبونه منه لاعتقادهم بأن الله تعالى قد أعطاه القدرة على ذلك، ولو لم يعطها إياه لما استطاع فعل شيء أبداً، وليس في ذلك أي معنى من معاني الشرك، بل هو عين التوحيد والإيمان بالواحد الأحد، الذي لا شريك له ولا مثيل؛ لأنه إرجاع جميع أعمال المكلفين صغيرها وكبيرها إلى قدرة الله تعالى وإعطائه القدرة إلى خلقه، وبواسطة هذه القدرة يستطيع العبد أن يقوم بالعمل باختياره وإرادته .

نعم للوهابية أن يناقشوا في أساس الإعطاء والإقدار، أي لهم أن ينكروا أن الله تعالى أعطى المخلوق تلك القدرة على القيام بالأمور الغيبية المستعصية على سائر الناس، وهذه مسألة أخرى لا ينبغي حشرها في مسائل التوحيد والشرك؛ فإن من طلب من آخر فعلاً غيبياً؛ معتقداً بأنه قادر على القيام به، مخطئاً في اعتقاده هذا، لا يُرمى بالشرك والخروج عن ربقة الإسلام، وإلا لاتهم الغريق بالشرك عندما ينادي الواقف على الشاطئ ويدعوه لإنقاذه وهو يجهل بأن هذا الواقف لا يستطيع الإنقاذ ولا يعرف السباحة!

---

(١) سورة ص: ٣٩ .

ويتهم بالشرك من وقفت به سيارته ونادى لإصلاحها من لا يعرف!

ويتهم العطشان بالشرك عندما يطلب الماء ممن ليس عنده وهو لا يدري بذلك! وهكذا ...

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ البحث حول ذلك وإثبات عكس ما يعتقد به الوهابية .

وإذا اتضحت هذه الأمور، وأسفرت حقيقتها كالشمس في وضح النهار تنحل مشكلة عويصة يقع فيها من لم يدرك معارف القرآن الكريم، نتعرض لها في الإضاءة الآتية .

الإضاءة الرابعة: حول أفعال تنسب إلى الله تعالى وإلى المخلوق .

هناك من الأفعال ما ينسبها الله تعالى لنفسه على نحو الحصر، ثم ينسبها لغيره أيضاً، فيظن من لا خبرة له ولا معرفة بأن هذا تناقض وتعارض في القرآن الكريم، وحاشاه ذلك، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[2] .

فمن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

(١) سورة النساء: ٨٢ .

(٢) سورة فصلت: ٤٢ .

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(٢)، ويقول تعالى في آية ثالثة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

فنسب جلّ وعلا توفي الأنفس لنفسه في الآية الأولى، ونسبه في الآية الثانية إلى رسله، وإلى ملك الموت في الآية الثالثة.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾(٤)، ويقول في آية أخرى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٥).

٣- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٦)، ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(٧)، ويقول أيضاً: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٨).

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا

---

(١) سورة الزمر: ٤٢.

(٢) سورة الأنعام: ٦١.

(٣) سورة السجدة: ١١.

(٤) سورة الذاريات: ٥٨.

(٥) سورة النساء: ٥.

(٦) سورة النساء: ٨١.

(٧) سورة يونس: ٢١.

(٨) سورة الزخرف: ٨٠.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾[١]، ويقول في آية أخرى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[٢].

وهناك آيات أخرى تجري هذا المجرى.

والحل في كل ذلك هو ما قدمناه في الإضاءة الثالثة: أي أن مسبب الأسباب بغير سبب هو الله تعالى فهو الخالق الرازق الغني القادر المحيي المميت، مستقلاً في فعله كما هو مستقل في أصل وجوده، غير محتاج لأحد من خلقه، وأما المخلوقات فهي تقوم ببعض الأفعال بتسبيب من الله تعالى، فلولا القوة المودعة عندهم من الله تعالى لما استطاعوا القيام بشيء، فمن أجل ذلك يصح نسبة هذا الفعل إليه تارة؛ لأنه مسبب السبب ومعطيه، ورازق القدرة والقوة على العمل، وينسب تارة أخرى إلى المخلوق الذي أعطي القدرة عليه؛ لأنه المباشر لذلك العمل، ولهذا قال تعالى في آية واحدة:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٣]، فهو في الحين الذي ينسب الرمي إلى الرسولﷺ فيقول له: (إذ رميت) يسلبه عنه فيقول: (وما رميت) وينسبه لنفسه تعالى فيقول: (ولكن الله رمى)، وما ذاك إلا لما قلناه وبيّناه عن قريب .

ولهذا نلاحظ أيضاً أن الله تعالى نسب الخلق والإحياء والإبراء والإغناء لبعض أنبيائه، وهي ـ بلغة ابن تيمية وأتباعه ـ أفعال الله تعالى، التي لا يأتي بها البشر، أو أفعال لا يقدر عليها إلا الله تعالى!

---

(١) سورة يونس: ٣ .

(٢) سورة النازعات: ٥ .

(٣) سورة الأنفال: ١٧ .

قال تعالى: ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١).

ولكن كل ذلك بإذن الله كما صرحت الآية الشريفة.

وقال تعالى في حق حبيبه المصطفى:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾(٣).

فنسبت الآية الأولى إيتاء الفضل إلى الله تعالى وإلى الرسول ﷺ، ونسبت الآية الثانية الإغناء إلى الله تعالى وإلى الرسول ﷺ، وليس المراد من الإغناء مجرد الإعطاء، فإن الإعطاء قد يكون معه إغناء، وقد لا يكون معه إغناء وإن كان العطاء كثيراً، فالإغناء نستطيع أن نقول عنه: إنه حالة غيبية؛ إذ ربما يكون العطاء قليلاً فيجعل الله فيه خيراً كثيراً؛ إذ يبارك فيه، ففي الإغناء بركة خاصة.

ومن المناسب جداً أن نذكر ما جرى بين الإمام الصادق عليه السلام وأبي حنيفة مما يرتبط بهذه الآية: قال أبو الفتح الكراجكي في كتابه كنز الفوائد: (ذكروا أن أبا حنيفة أكل طعاماً مع الإمام الصادق

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) سورة التوبة: ٥٩.

(٣) سورة التوبة: ٧٤.

جعفر بن محمد عليهما السلام، فلما رفع الصادق عليه السلام يده من أكله قال: الحمد لله رب العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك صلى الله عليه وآله، فقال أبو حنيفة: أبا عبد الله! أجعلت مع الله شريكاً ؟! فقال له: ويلك فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[1]، فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتهما قط من كتاب الله، ولا سمعتهما إلا في هذا الوقت، فقال أبو عبد الله عليه السلام: بلى قد قرأتهما وسمعتهما ولكن الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[2]، وقال: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[3][4].

الإضاءة الخامسة: في الاعتقاد بالقدرة الغيبية للأولياء:

من الشبه التي لابد من رفعها في محل الكلام شبهة كون الاعتقاد بالقدرة الغيبية للأنبياء والأولياء من موجبات الشرك!

ولرفعها لابد من تقديم مقدمات:

المقدمة الأولى: إن الإنسان العاقل لا يطلب حاجته من أحد إلا إذا تيقن من قدرته على قضائها أو اطمأن بذلك.

المقدمة الثانية: أن القدرة على قسمين:

---

(١) سورة التوبة: ٥٩.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة المطففين: ١٤.

(٤) كنز الفوائد: ١٩٦.

١- القدرة العادية، وإن شئت فعبّر عنها بالمادية، كقدرة الإنسان على أفعاله المتعارفة من حفر البئر وجلب الماء وطبخ الطعام ونجارة الخشب وحدادة الحديد وهكذا من الأمور المبتنية على الأسباب الطبيعية المودعة عنده.

٢- القدرة الغيبية، والمراد بها القدرة على الشيء بغير الموازين الطبيعة، كضرب النبي موسى عليه السلام البحر بالعصا فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أو مسح النبي عيسى عليه السلام على الأكمه فيعود سالماً.

المقدمة الثالثة: أن الاعتقاد بوجود القدرة المادية للإنسان وطلب الأفعال المقدورة بهذه القدرة منه لا ضير فيه قطعاً، بل هو أمر ضروري، ونظام المجتمع الإنساني قائم عليه، إنما الكلام في الاعتقاد بوجود القدرة الغيبية في الأولياء من أنبياء وأوصياء وغيرهم، وطلب هذا النوع من الأفعال منهم بهذا الاعتقاد، كأن يطلب الإنسان منهم شفاء ابنه من غير دواء، فقد ذهبت الوهابية إلى أنه شرك بالله تعالى؛ لأنه اعتقاد بإلوهية المطلوب منه؛ لاعتقاده بأنه يملك سلطة مهيمنة على القوانين الطبيعية فيكون شريكاً لله تعالى.

اذا اتضحت هذه المقدمات نقول: إن الاعتقاد بوجود القدرة الغيبية في الإنسان على نحو الاعتقاد بوجود القدرة العادية ـ المادية ـ فيه؛ فإنه يتصور على نحوين:

النحو الأول: أن يعتقد بأن الإنسان يملك القدرة ـ المادية أو الغيبية ـ بنفسه مستقلاً عن الله، ولا شك في كون هذا الاعتقاد شركاً بالله تعالى؛ لاعتقاده بوجود الند له تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

النحو الثاني: أن يعتقد بأن الإنسان يملك القدرة الغيبية والمادية من قبل الله تعالى، فهو الذي أفاض عليه القدرة الغيبية كما أفاض عليه وعلى غيره القدرة المادية، فيعتقد بأن الله تعالى أقدر نبيه عيسى عليه السلام على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذنه، فليس هذا من الشرك في شيء، بل هو عين التوحيد؛ لأنه يعتقد بأن المخلوق لا يقدر على شيء إلا بإذن الله تعالى وإقداره.

وعليه فلو طلب الإنسان ممن يعتقد فيه بأن الله تعالى وهب له هذه القدرة لا يكون مشركاً، فيطلب من النبي أن يشفي ابنه لأن الله تعالى أعطاه قدرة غيبية يستطيع بواسطتها على ذلك وإن عجزت أطباء البشر عن شفائه.

نعم ربما يناقش في إعطاء الله تعالى للبشر هذه القوة الغيبية، ولكن ذلك أمر آخر لا ربط له بالشرك كما تقدم، ومع ذلك فقد صرحت الآيات أن الله تعالى أعطى بعض خلقه هذه القوة الغيبية، ونقتصر للتمثيل على ذلك بما أعطي العفريت، وما أعطي من عنده علم من الكتاب وهو وصي نبي الله سليمان عليه السلام، وإنما اخترت هذين المثالين؛ لأن كليهما ليسا من الأنبياء حتى لا يقال: بأن هذا مختص بالأنبياء لأجل المعجزة التي هي دليل على نبوتهم.

قال تعالى في ما اقتص من خبر النبي سليمان عليه السلام مع الملكة بلقيس: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ

وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾(١) .

فإن الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ـ مع البعد الشاسع بين البلدين ـ في هذه المدة القصيرة التي اقترحها العفريت ليس على وفق القوانين الطبيعية، فما بالك بالإتيان به في المدة الأقصر جداً التي قال بها من عنده علم من الكتاب؟! أليس ذلك بقدرة غيبية أعطاها الله تعالى إياه وهو القادر على كل شيء.

فهل العفريت أو وصي النبي سليمان عليه السلام أكرم على الله تعالى من نبينا محمد صلى الله عليه وآله وهو خير خلقه ؟!

أضف إلى ذلك:

أن منشأ القدرة التي كانت عند وصي النبي سليمان عليه السلام هي ما علمه الله إياه من العلم كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة نفسها: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾؛ فإن الوصف مشعر بالعلية كما يقولون، وقد وصف بأنه عنده علم من الكتاب، ولم تقل الآية: قال آصف، أو قال وصي سليمان، مما يستشعر من ذلك أنه يملك هذه القدرة العظيمة لأن عنده علم من الكتاب، ولا شك ولا ريب أن ما عند نبينا محمد صلى الله عليه وآله من العلم يفوقه بكثير فتكون القدرة التي عنده تفوق القدرة التي عند وصي النبي سليمان عليه السلام بأكثر مما تتصوره عقول البشر.

وهكذا الحال في وصيه الذي هو باب مدينة علمه، فالنبي صلى الله عليه وآله هو

---

(١) سورة النمل: ٣٨ـ٤٠ .

مدينة العلم وعلي بابها كما في الرواية المشهورة عند الفريقين[١] .

وهو الذي عنده علم الكتاب كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] في روايات الفريقين[٣] .

والبحث في هذه الجهة له مجال آخر، فالتوسع فيه يخرجنا عن البحث الأساس، والحر تكفيه الإشارة .

والحاصل: أنه لا يمكن إنكار أن يعطي الله تعالى خاصة خلقه قوة غيبية يستطيعون بها أن يقوموا بأفعال خارقة للعادة بإذنه، وليس الاعتقاد بذلك موجباً للشرك؛ لأن القوة من الله تعالى، وليست منهم بذاتهم .

الإضاءة السادسة : عدم مدخلية حياة الولي وموته في مفهوم الشرك :

قد فرّق ابن تيمية وأتباعه بين التوسل والاستغاثة بالحي والتوسل والاستغاثة بالميت فأجازوا الأول ومنعوا الثاني، واعتبروه شركاً؛

(١) قال السيد السقاف في كتابه: (تناقضات الألباني الواضحات) ٢: ٨٢: (صححه الحافظ ابن معين كما في تاريخ بغداد ١١: ٤٩، والإمام الحافظ ابن جرير الطبراني في (تهذيب الآثار) مسند سيدنا علي ص ١٠٤ حديث ٨، والحافظ العلائي في (النقد الصحيح)، والحافظ ابن حجر، والحافظ السيوطي، والحافظ السخاوي) .

وقد كتب الحافظ أحمد بن الصديق المغربي كتاباً أسماه: (فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي) .

(٢) سورة الرعد: ٤٣ .

(٣) من باب المثال تفسير الثعلبي ٥: ٣٠٣ .

والسبب أنه ميت لا يقدر على شيء، قال ابن القيم: (ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى، والاستعانة بهم، والتوجه إليهم . وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً)[1] .

ولا يخفى أن ما أقامه من الدليل غير دال على مدعاه؛ فإن انقطاع عمل الميت لا يعني أن طلب الحاجة منه موجب للشرك، بل غاية ما يمكن أن يدعى أنه لغو، وكذلك عدم ملكه لنفسه ضراً ولا نفعاً .

مع أن الحي يشترك معه في هذه الصفة؛ فإنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً أيضاً، وكل ما يملكه إنما هو من الله تعالى، وإن اعتقد خلاف ذلك في الحي وعلى أساسه بنى الفرق بينه وبين الميت فقد أشرك من رمى غيره بالشرك .

وكيف كان فما ينبغي بيانه هو عدم مدخلية الموت والحياة في مفهوم الشرك، ويعرف ذلك مما تقدم من أن المدار في الشرك هو الاعتقاد بالقدرة المستقلة عن الله في غيره تعالى، فمن اعتقد في أحد بأنه يملك القدرة مستقلاً عن الله تعالى فقد أشرك بالله وجعل له نداً، ومن اعتقد فيه بأنه يملك القدرة بإقدار من الله تعالى فليس بمشرك، وهذا الميزان هو المدار في تمييز الشرك، ولا يفرق فيه بين الحياة والموت؛ فمن اعتقد بأن الرسول ﷺ قادر على شفاء المرضى وقضاء الحوائج وأنه يسمع الكلام ويرد السلام ويدعو لمن توسل به بإقدار من الله تعالى ليس بمشرك، بلا فرق بين كونه في الحياة الدنيا أو بعد

---

(١) التوحيد والشرك في القرآن: ١٣٧، عن فتح المجيد: ٦٨ الطبعة السادسة .

رحيله عنها، ومن اعتقد بأنه قادر على ذلك بنفسه مستقلاً عن الله تعالى فهو مشرك بلا فرق أيضاً بين حال حياته ورحيله من الدنيا .

دفع توهم :

ربما يقال: بأن الميت لا حياة له فكيف يتوسل به ويقضي الحاجات وهو في الترب رفات ؟

فنقول: بأن إنسانية الإنسان إنما هي بروحه لا بجسده، وكذلك شعوره وإدراكه، ومعنى الموت هو انفصال الروح عن الجسد، وليس معناه فناء الروح والجسد، والروح باقية في عالمها، فالميت يدرك بروحه ويشعر ويحس ويعرف بما يدور في عالمنا الدنيوي بلا فرق في ذلك بين المؤمن وغيره، وأما الأنبياء والشهداء فلهم خصوصية أخرى، ويستفاد كل ذلك من الآيات والروايات الصحيحة حتى عند أهل السنة، أما بالنسبة إلى غير المؤمن فقد روى البخاري في صحيحه وغيره في غيره، واللفظ للأول: (... عن صالح حدثني نافع أن ابن عمر أخبره قال اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فقيل له: أتدعو أمواتاً ؟! فقال: ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون)[1] .[2]

---

(١) البخاري باب ما جاء في عذاب القبر ٢: ١٠١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠١هـ .

(٢) وهنا بحث ربما يثار، وهو أن عائشة أنكرت سماع أهل القبور، ولكن رد قولها جمهور أهل العلم، ففي عمدة القاري للعيني ٨: ٢٠٢: (قال الكرماني: وكأن حديث (ما أنتم بأسمع منهم) لم يثبت عندها، ومذهبها أن أهل القبور يعلمون ما سمعوا قبل الموت ولا يسمعون بعد الموت . انتهى .

قلت: هذا من عائشة يدل على أنها ردّت رواية ابن عمر المذكورة، **ولكن**

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الميت إذا وضع في قبره انه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا)[١].

وهذا عام للمؤمن وغيره.

وأما ما يرتبط بالشهداء والأنبياء فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

ودرجة الأنبياء هي فوق درجة الشهداء بلا ريب ولا إشكال، ومع ذلك فقد رووا ما يفيد حياتهم ففي صحيح البخاري:

(... قال أنس فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة.

قال أنس فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال مرحباً بالنبي

الجمهور خالفوها في ذلك وقبلوا حديث ابن عمر؛ لموافقة من رواه غيره عليه. وقال السهيلي: عائشة لم تحضر قول النبي صلى الله عليه (وآله) وسلم، فغيرها ممن حضر أحفظ للفظ النبي صلى الله عليه(وآله) وسلم: وقد قالوا: يا رسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا ؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، قال: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عالمين، جاز أن يكونوا سامعين أيا ما كان روسهم، كما هو قول الجمهور، أو يأذن الروح على رأي من يوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع الجسد) . انتهى ما في العيني.

(١) صحيح مسلم ٨: ١٦٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٩ـ١٧١.

الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا ؟ قال: هذا إدريس ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا ؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا ؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم صلى الله عليه وسلم)[١] .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك: (إن رسول الله ﷺ قال: أتيت، وفى رواية هداب مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى في قبره)[٢] .

وعندهم روايات تصرح بأن نبينا محمداً ﷺ أمّ الأنبياء في الصلاة، وأنه يسمع من يسلم عليه، ففي فتح الباري لابن حجر: (قال البيهقي وفي حديث سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة أنه لقيهم ببيت المقدس فحضرت الصلاة فأمهم نبينا ﷺ، ثم اجتمعوا في بيت المقدس .

وفي حديث أبي ذر ومالك بن صعصعة في قصة الإسراء أنه لقيهم بالسموات، وطرق ذلك صحيحة فيحمل على أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره، ثم عرج به هو ومن ذكر من الأنبياء إلى السماوات فلقيهم النبي ﷺ، ثم اجتمعوا في بيت المقدس فحضرت الصلاة فأمهم نبينا ﷺ .

قال: وصلاتهم في أوقات مختلفة، وفي أماكن مختلفة لا يرده العقل

(١) صحيح البخاري ١: ٩٢ .

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٢ .

وقد ثبت به النقل فدل ذلك على حياتهم .

قلت: وإذا ثبت أنهم أحياء من حيث النقل فإنه يقويه من حيث النظر كون الشهداء أحياء بنص القرآن والأنبياء أفضل من الشهداء .

ومن شواهد الحديث ما أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رفعه وقال فيه: **وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم، سنده صحيح**، وأخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب بسند جيد بلفظ من **صلى على عند قبري سمعته ومن صلى علي نائياً بلغته**، وعند أبي داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره عن أوس بن أوس رفعه في فضل يوم الجمعة **فأكثروا علي من الصلاة فيه فان صلاتكم معروضة علي قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**)[1] .

ولا بأس أن أختم هذه الإضاءة بكلام لابن القيم، نقله عنه السيد السقاف في كتابه البشارة والإتحاف، قال: (ذكر ابن القيم في كتابه (الروح) في المسألة الأولى منه: أن الميت يسمع سلام من يسلّم عليه واحتج له بأحاديث منها الحديث الصحيح المشهور الذي فيه: (إن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه) ثم قال:

(فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال، وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية .

---

(١) فتح الباري ٦: ٣٥٢ .

وهـذا الـسلام والخطـاب والنـداء الموجـود يـسمع، ويخاطـب، ويعقـل، ويـرد، وإن لم يـسمع المـسلم الـرد، وإذا صـلّى قريبـاً مـنهم شـاهدوه، وعلموا صلاته، وغبطوه على ذلك) انتهى كلام ابن القيم)[١] .

فبهـذا يتـضح أن العقـل والنقـل وكلمـات أعـلام أهـل الـسنة كلـها قائمة على أن الميت بنحو مطلق يسمع ويحس ويشعر، وأما الأنبياء عليهم السلام فلهم خصوصية خاصة ودرجة عالية ومقام رفيع، فهم أحياء عند ربهم يرزقون، فالطلب منهم ليس طلباً من الأموات كما يحلو لابن تيمية وأتباعه أن يعبروا عنهم بذلك .

كما أن الطلب منهم ليس طلباً منهم بما هم مستقلون عن الله تعالى بالقدرة على الإجابة، وإنما هو بإقدار من الله تعالى، فليس فيه شائبة شرك، وهـذا لعمـري مـن الواضـحات، وإنمـا أطلنـا الكـلام في هـذه الإضائة؛ لأهميتها وشدة التركيز عليها عند أتباع ابن تيمية .

---

(١) البشارة والإتحاف: ٤٠ـ٤١ .

النتائج المهمة للأبحاث السابقة

والنتيجة إلى هنا أمور:

الأمر الأول: أن مراتب التوحيد التي تنفع معرفتها في المقام ثلاثة:

١- توحيد الخالقية بمعنى أنه لا خالق إلا الله تعالى.

٢- توحيد الربوبية بمعنى أنه لا مدبر في الكون بالاستقلال إلا الله.

٣- توحيد العبادة بمعنى أن العبادة لا تكون إلا لله.

الأمر الثاني: أن معنى (إله) هو نفس المعنى المستفاد من كلمة (الله)، أعني المعنى البسيط الجامع لصفات الكمال والجلال ولكنه معنى كلي ينحصر بفرد عند الموحدين، ولفظ (الله) علم شخصي، فيكون معنى كلمة التوحيد: نفي أي إله بذلك المعنى وحصره في الله تعالى.

الأمر الثالث: أن الشرك الواقع قبل البعثة لا ينحصر بالشرك في العبادة.

الأمر الرابع: أن الأفعال تدور مدار النية والاعتقاد.

الأمر الخامس: أن معنى العبادة هو الخضوع لمن يعتقد أنه إله أو رب أو يملك التصرف بذاته واستقلاله.

الأمر السادس: أن الطاعة والخضوع على أقسام، بعضها جائز وبعضها حرام.

الأمر السابع: أن الفعل الذي يقال عنه فعل الله هو الفعل الصادر عن استقلال؛ لأنه القادر المطلق والغني عن عباده، فوجوده وفعله بذاته.

الأمر الثامن: أن فعل المخلوق هو الفعل الذي يصدر منه لا بذاته بل بإقدار من الله تعالى، بلا فرق بين كبير الأفعال وصغيرها، وعاديها وغيبيها.

الأمر التاسع: أن مجرد الاعتقاد بأن المخلوق يملك القدرة الغيبية لا يوجب الشرك، بل الذي يوجبه هو أن يعتقد بأنه يملكها باستقلاله، وأما الاعتقاد بأنه يملكها بإقدار من الله تعالى فلا شيء فيه.

الأمر العاشر: أن طلب الفعل من المخلوق باعتقاد أنه يقدر على إيجاده بإقدار من الله تعالى ليس بشرك، وإنما الذي يوجبه طلبه منه باعتقاد أنه قادر عليه بنفسه.

الأمر الحادي عشر: أن الحياة والموت لا مدخلية لهما في مفهوم التوحيد والشرك.

الأمر الثاني عشر: أن الأنبياء والأوصياء أحياء عند ربهم يرزقون.

خلاصة البحث

وإذا اتضح معنى العبادة، واتضحت الأمور التي بيّناها في الإضاءات ولاسيما التفريق بين الاعتقاد بوجود القدرة الاستقلالية عن الله تعالى في غيره، وبين الاعتقاد بوجودها عندهم من الله تعالى، وأن الأول شرك، والثاني ليس بشرك، يتضح أن ما يقوم به المسلمون من التوسل بأولياء الله والاستغاثة بهم وطلب الشفاعة منهم وغير ذلك من الأمور ليس من الشرك في شيء؛ لأن المسلمين لا يعتقدون في الأنبياء والأولياء الربوبية ولا الإلوهية، ولا أنهم يتصرفون بتصرف مستقل عن الله تعالى، وإنما يعتقدون فيهم أنهم بشر لا يملكون شيئاً من دون الله تعالى، وأن كل ما عندهم هو من عند الله تعالى؛ ولكنهم عباد مكرمون قد اصطفاهم الله من بين خلقه، واجتباهم من دون عباده، فأعطاهم الله تعالى من القدرة الغيبية ما لا يعلمه إلا هو.

وهذا جواب عام يكفي لرفع جميع شبهات ابن تيمية وأتباعه، ولكن لا بأس بأن نستعرض أهم المسائل التي أثاروا الكلام فيها:

المسألة الأولى: التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين

أقسام التوسل عند ابن تيمية وأتباعه :

قسم ابن تيمية وأتباعه التوسل بالأنبياء والأولياء من حيث إيجابه الشرك وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التوسل بالحي الحاضر، كما لو قال: اللهم اسقنا بنبيك أو بعم نبيك كما توسل عمر بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وسيأتي الأثر بذلك .

القسم الثاني: التوسل بالحي الغائب، كأن يتوسل من كان في زمن الرسول ﷺ به ولم يكن معه في المدينة .

القسم الثالث: التوسل بالميت، ويمثلون له بمن يتوسل بالرسول ﷺ بعد رحيله من هذه الدنيا .

أما الأول فلا شيء فيه عندهم وليس بشرك، وأما القسمان الآخران فهما شرك بالله العظيم، فمحل البحث ـ إذن ـ في هذين القسمين الأخيرين، أعني الثاني والثالث .

التوسل لغة :

فنقول: التوسل لغة مأخوذ من الوسيلة وهي كما في الصحاح:

(الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسيل والوسائل ، والتوسيل والتوسل واحد ، يقال: وسل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسل إليه بوسيلة...)[١] .

فالوسيلة هي: ما يتوصل بها إلى تحصيل المطلوب، وهي في المقام بهذا المعنى، فالموحد يتوصل إلى تحصيل مطلوبه من الله تعالى بجاه نبيه ﷺ ، ففي الوسيلة ثلاثة أطراف: المتوسِّل وهو العبد، والمتوسل به وهو النبي أو الولي، والمتوسَّل إليه وهو الله تعالى .

صور التوسل :

والتوسل بالأنبياء والصالحين يتصور على أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يقول المتوسل: (أتوسل به إلى الله تعالى، أو أتوجه به إليه، أو أتشفع، أو أقدمه بين يدي حاجتي، ونحو ذلك) .

الوجه الثاني: أن يقول: (أسألك بفلان، أو بحق فلان، أو بحقه عليك، أو بجاهه عندك، أو ببركته، أو بحرمته عندك، ونحو ذلك) .

الوجه الثالث: أقسمت عليك، أو أقسم عليك بفلان ونحو ذلك[٢] .

وكلها تؤول إلى شيء واحد وهو جعل المتوسَّل به وسيلة وواسطة بين المتوسِّل وبين الله تعالى؛ لما له من المنزلة عنده والكرامة لديه، وإن أفرد أتباع ابن تيمية الوجه الثالث بالبحث، وعنونوه بـ(الإقسام على الله بمخلوق أو بحق مخلوق)، ولكنه صورة من صور التوسل، وأدلة

---

(١) الصحاح للجوهري ٥: ١٨٤١ .

(٢) تعرض لهذه الأوجه الثلاثة السيد محسن الأمين رحمه الله في كشف الارتياب: ٢٤٢ .

جوازه تشمله كما سيتضح إن شاء الله تعالى .

وجميع هذه الأوجه في جميع الأقسام الثلاثة غير موجبة للشرك، بل دلّت الأدلة النقلية على جوازها ووقوعها، والبحث معهم يتم في نقطتين:

المناقشة في تقسيم ابن تيمية :

النقطة الأولى: في عدم صحة تقسيم التوسل إلى ما يوجب الشرك وما لا يوجبه على أساس الحياة والموت والحضور والغياب، وتوضيح ذلك:

إن الجهة المتصورة التي من أجلها فرّقوا بين التوسل بالحي الحاضر وبين الغائب والميت هي: أن الحي الحاضر يدرك ويسمع ويرى، وأما الغائب فإنه لا يسمع ولا يرى، وكذلك الميت؛ فإنه لا يسمع ولا يقدر على شيء، كما يستفاد ذلك من مثل عبارة ابن القيم المتقدمة .

وهذه الجهة غير قابلة للتفريق لأمرين:

الأمر الأول: أن التوسل إن كان شركاً؛ لأن فيه إشراك غير الله معه في الطلب فلا فرق فيه بين التوسل بالحي أو بالميت، بالحاضر أو بالغائب، وإن لم يكن شركاً؛ لأنه لم يشرك غير الله معه في الطلب، بل كان الطلب من الله وحده لا شريك له، وتوجّه المتوسل إلى الله بحبيبه أو وليه لأجل قضاء الله وحده لحاجته ببركتهما ومنزلتهما عنده فلا فرق فيه بين هذه الحالات أيضاً، والإدراك وعدمه لا يوجب الشرك وعدمه .

الأمر الثاني: أن المتوسل إنما توسل بالنبي أو بالولي لأجل حرمته

ومنزلته من الله تعالى، ولا تزول الحرمة والمنزلة منه تعالى بالغياب ولا بالموت، فلا يفرق في التوسل بين كونه في حال حياة المتوسل به أو بعد مماته.

وعليه فالتقسيم الصحيح للتوسل بحيث يكون بعضه شركاً والآخر ليس بشرك إنما يكون على أساس اعتقاد المتوسِّل في المتوسَّل به، فإن كان يعتقد بأن المتوسَّل به يستجيب له بنفسه فهو شرك، وإن كان يعتقد بأنه يستجيب له بإذن الله فهو ليس بشرك، وبما أن ما يقوم به المسلمون ليس من قبيل القسم الأول فليس بشرك؛ لأنهم لم يشركوا مع الله تعالى غيره في الطلب.

أدلة جواز التوسل:

النقطة الثانية: في أدلة جواز التوسل بالغائب والميت.

والأدلة على ذلك كثيرة من الآيات والروايات، ولكن سنقصر البحث على الاستدلال بالروايات؛ إذ يمكن الجدال في معنى الآيات، وإن كان سيتضح الاستدلال ببعض الآيات في أثناء البحث، فنقول:

يمكن تقسيم الروايات والآثار الدالة على وقوع التوسل بالرسول ﷺ بحسب الحالات إلى أربع، وهي تدل جوازه بل حسنه:

الحالة الأولى: التوسل بالنبي ﷺ قبل وجوده في عالم الدنيا.

روى الحاكم في المستدرك وصححه، والطبراني في الأوسط واللفظ للأول بسنده عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني

بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال الله: صدقت يا آدم انه لأحب الخلق إلي ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك .

هذا حديث صحيح الإسناد[1] .[2] .

ويؤيد هذا الحديث: ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، فإنه فسر في بعض روايات الشيعة والسنة بذلك، فمن ذلك ما ورد في معاني الأخبار للشيخ الصدوق (باب معنى الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه) بسنده عن ابن عباس، قال: سألت النبي ﷺ عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، قال، سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي فتاب الله عليه)[4] .

ومنه ما في الدر المنثور: (أخرج الديلمي في مسند الفردوس بسند

---

(١) المستدرك ٢: ٦١٥، المعجم الأوسط ٦: ٣١٣ .

(٢) قال العلامة الأميني في كتابه الغدير ٧: ٣٠٣: (أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، والحاكم في المستدرك ٢: ٦١٥ وصححه، والطبراني في المعجم الصغير، وأبو نعيم في الدلائل، وابن عساكر كما في الخصايص، وأقر صحته السبكي في شفاء السقام: ١٢٠، والقسطلاني في المواهب ١: ١٦، والسمهودي في وفاء الوفا ٢: ٤١٩، والزرقاني في شرح المواهب ١: ٦٢، والعزامي في فرقان القرآن: ١١٧، وذكره السيوطي في الخصايص الكبرى ، عن عدة من الحفاظ ١: ٦) .

(٣) سورة البقرة: ٣٧ .

(٤) معاني الأخبار: ٢٥ .

رواه عن علي قال سألت النبي ﷺ عن قول الله: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ؟ فقال: إن الله أهبط آدم بالهند وحواء بجدة ـ إلى أن قال ـ : حتى بعث الله إليه جبريل، وقال: يا آدم ألم أخلقك بيدي: ألم أنفخ فيك من روحي ؟ ألم أسجد لك ملائكتي ألم أزوجك حواء أمتي ؟ قال: بلى . قال: فما هذا البكاء ؟ قال وما يمنعني من البكاء وقد أخرجت من جوار الرحمن . قال: فعليك بهؤلاء الكلمات فإن الله قابل توبتك، وغافر ذنبك . قل: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلا أنت، عملت سوءاً، وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم .

وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ؟ قال: سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي . فتاب عليه)[1] .

قال العلامة الأميني ﵀: (وأخرجه الفقيه ابن المغازلي في المناقب كما في ينابيع المودة ص٢٣٩ ، وروى أبو الفتح محمد بن علي النطنزي المولود ٤٨٠ في كتابه: الخصايص عن ابن عباس) .

وساق الحديث بصورة أوسع تلتقي في المضمون الذي نحن بصدده[2] .

ويؤكد هذا المعنى أن القرآن الكريم أطلق لفظ (الكلمة) وأراد بها الأشخاص.

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ

(١) الدر المنثور ١: ٦٠ .

(٢) الغدير ٧: ٣٠٠ـ٣٠١ .

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾[3] .

الحالة الثانية: التوسل به ﷺ في حال حياته، وهو على قسمين:

القسم الأول: التوسل به ﷺ حال حياته وفي حضوره .

وقد قلنا بأن ابن تيمية وأتباعه لم يحرموا ذلك ولم يجعلوه من أقسام الشرك فلا حاجة للإطالة فيه ونقتصر على ما رواه البخاري عن أنس: أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال: اللهمّ كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمٍّ نبينا فاسقنا .

قال: فيسقون)[4] .

وهنا تنبيهان:

الأول: إن ظاهر كلام عمر أن التوسل كان بشخص العباس كما كان بشخص النبي ﷺ وليس بدعائه، فمن يدّعي أن التوسل كان بدعاء الرسول ﷺ، أو بدعاء العباس بحيث سألوه أن يدعو لهم فقد شطّ بعيداً عن اللفظ العربي ومعناه .

---

(١) سورة آل عمران: ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران: ٤٥ .

(٣) سورة النساء: ١٧١ .

(٤) صحيح البخاري ٢: ١٦ .

الثاني: أنه يمكن التمسك بهذا الأثر على جواز التوسل بعد الموت أيضاً[1]؛ فإن التوسل بالعباس لم يكن لذاته وإلا لقال نتوسل إليك بالعباس، ولا لأفضليته على غيره؛ فإن في القوم حينئذ من هو أفضل منه بالاتفاق وهو أمير المؤمنين علي عليه السلام، فالتوسل بالعباس إنما كان لكونه عم النبي صلى الله عليه وآله، فالتوسل حقيقة كان بالنبي صلى الله عليه وآله وإلا لا معنى لاختيار العباس دون غيره ممن هو أفضل منه، ولم يكن معنى لقول عمر: (عم نبينا)، فقول عمر هذا من قبيل ما لو جئت لأمير تكون أخاً لابنه من الرضاعة وقلت له: بمرضعة ابنك أعطني كذا وتقصد أمك، فالتوسل حقيقة كان بالابن، وجعلت المرضعة وسيلة؛ لأنها أرضعت الابن، فالتوسل بها في طول التوسل بالابن، ولهذا لو لم يكن بينك وبين ابنه أخوّة من الرضاعة لم يصح توسلك عنده لو قلت له: بأمي أعطني كذا، وهنا التوسل بالعباس إنما لكونه عم النبي صلى الله عليه وآله فيكون في طول التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله، فيدل الأثر على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله بعد رحيله من الدنيا.

القسم الثاني: التوسل به صلى الله عليه وآله حال حياته وفي غيابه.

وقد قال ابن تيمية وأتباعه بأنه شرك، ويرد كلامهم ـ مضافاً لما تقدم من الجواب في النقطة السابقة ـ برواية عثمان بن حنيف الصحيحة وقد أخرجها جماعة من أعلام الرواة من أهل السنة وهي بلفظ النسائي بسنده عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه: (أن

---

(١) الاستدلال بهذا الأثر تمشياً مع العامة الذين يستدلون برأي الصحابة وعملهم، وأما نحن الذين لا نرى الحجية إلا للسنة المعصومة فلا نتمسك بمثل هذا الأثر على أن يكون حجة لنا فلا تغفل.

أعمى أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري، قال: أو أدعك؟ قال: يا رسول إنه شق علي ذهاب بصري، قال: فانطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف لي عن بصري، شفّعه فيَّ وشفّعني في نفسي فرجع وقد كشف له عن بصره)[1].

ورواها الترمذي وفيها: (ويدعوه بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في.

هذا حديث حسن صحيح غريب)[2].

ورواها ابن ماجة في السنن، وقال: (قال أبو إسحاق: هذا حديث صحيح. هذا الحديث قد رواه الترمذي في أبواب الأدعية، في أحاديث شتى من باب الأدعية. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر)[3].

ورواها الحاكم النيسابوري وقال: (حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)[4]، ورواها غيرهم كأحمد بن حنبل في مسنده[5]، والطبراني وصححه كما سيأتي نقله في الحالة الثالثة.

---

(١) سنن النسائي ٦: ١٦٩.

(٢) سنن الترمذي ٥: ٢٢٩.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ٤٤١.

(٤) المستدرك ١: ٣١٣.

(٥) مسند أحمد ٤: ١٣٨.

والذي يظهر من سياق الرواية وتصريح رواية النسائي والطبراني الآتية: أن الرسول ﷺ أمره بالذهاب والوضوء والصلاة ثم الدعاء، فهو ذهب وصلى ودعا ثم رجع إلى النبي ﷺ سالماً، ومعنى ذلك أنه حين توسله بالنبي ﷺ كان غائباً عن مجلسه ﷺ؛ فإن في رواية النسائي: (فرجع وقد كشف له عن بصره) فتدل الرواية على جواز التوسل بالغائب، وحملها على أن الرسول ﷺ دعا له، أو أنه توسل به وهو حاضر في مجلسه خلاف ظهور الرواية جداً .

الحالة الثالثة: التوسل به ﷺ بعد رحيله من الدنيا .

وهذه الحالة هي المهمة في البحث؛ وقد رمى ابن تيمية وأتباعه بالشرك كلَّ من توسل بالنبي ﷺ بعد موته، أو بميت من الأولياء الصالحين، ولكن الأدلة الكثيرة على خلاف مدعاهم، فمن تلك الأدلة:

الدليل الأول: رواية عثمان بن حنيف المتقدمة برواية الطبراني؛ إذ فيها:

(عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضاة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلِّ فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي ﷻ فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك ورح إلي حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له عثمان، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على

الطنفسة وقال: حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فأتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا عليه ذهاب بصره ...)، فساق الرواية بنحو ما تقدم، إلى أن قال:

قال عثمان: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط .

والحديث صحيح)[١] .

ومن الواضح أن عثمان بن حنيف قد فهم من رواية الضرير التي حصلت في عصر النبي ﷺ العموم لما بعد رحيله من الحياة الدنيا، فلهذا علّم الدعاء لمن كان في عصر عثمان بن عفان، وقد توسل الرجل بالنبي ﷺ بعد رحيله وقضيت حاجته، وفهم الصحابي للرواية أولى بالقبول من فهم ابن تيمية وأتباعه، بل ما فعله عثمان بن حنيف هو امتثال لأمر النبي ﷺ، وليس مجرد فهم للرواية كما بيّنه الحافظ ابن الصديق المغربي استناداً لبعض طرق الحديث، قال في كتاب إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي ﷺ:

(ثالثاً: تبيّن مما أوردناه وحققناه في كشف تدليس الألباني وغشه أن القصة صحيحة جداً رغم محاولاته وتدليساته وهي تفيد جواز

---

(١) المعجم الصغير ١: ١٨٣ـ١٨٤ .

التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله؛ لأن الصحابي راوي الحديث، فهم ذلك، وفهم الراوي له قيمته العلمية، وله وزنه في مجال الاستنباط .

وإنما قلنا إن القصة من فهم الصحابي، على سبيل التنزل، والحقيقة أن ما فعله عثمان بن حنيف من إرشاده الرجل إلى التوسل، كان تنفيذاً لما سمعه من النبي ﷺ، كما ثبت في حديث الضرير، قال ابن أبي خيثمة[1] في تاريخه: حدثنا مسلم بن إبراهيم ...

وساق الحديث إلى قوله:

(اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري، **وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك**)، إسناده صحيح .

والجملة الأخيرة من الحديث تصرح بإذن النبي ﷺ في التوسل به عند عروض حاجة تقتضيه . وقد أعلّ ابن تيمية هذه الجملة بعلل واهية، بينت بطلانها في غير هذا المحل[2]، وابن تيمية جريء في رد الحديث الذي لا يوافق غرضه ولو كان في الصحيح)[3] انتهى .

الدليل الثاني: ما أورده الطبراني في المعجم بسنده: عن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: رحمك الله يا أمي،

---

(١) هو الحافظ الحجة الثقة أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي أبو بكر الحافظ ابن الحافظ، قال الدارقطني، ثقة مأمون . انظر سير أعلام النبلاء (١١ / ٤٩٢) . نقلناه من هامش كتاب ابن الصديق .

(٢) بينها في كتابه (مصباح الزجاجة - طبعة عالم الكتب ص ٣٧) . عن هامش الكتاب .

(٣) إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي ﷺ: ١٦ — ١٨ .

كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيّباً وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إياه وكفّنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله ﷺ بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه، ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها **بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي** فإنك أرحم الراحمين)[1] .

قال صاحب كتاب رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة حول سند هذا الحديث ما نصه: (ورواه من هذا الوجه الطبراني في الأوسط (١٥٢/١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (١٢١/٣)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٦٨/١) .

وهو حديث حسن .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٧/٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح وثّقه ابن حبان والحاكم وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ .

قلت: شيخ الطبراني أحمد بن حماد بن زغبة ثقة من شيوخ النسائي ولم يخرج له في الصحيح .

---

(١) المعجم الكبير ٢٤: ٣٥١-٣٥٢ .

أما روح بن صلاح فقد اختلف فيه فوثقه قوم وضعفه آخرون فمثله يحتاج لإعمال النظر لبيان حاله . فقال عنه الحاكم في سؤالات السجزي: ثقة مأمون .

وذكره ابن حبان في الثقات (٢٤٤/٨) .

وروى عنه يعقوب بن سفيان الفسوي في المعرفة والتاريخ (٤٠٦/٣) فهو ثقة عنده، قال الفسوي (التهذيب: ٣٧٨/١١): كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات . اه .

أما من جرحه فلم يذكر سبب جرحه ولم يفسره، ففي المؤتلف والمختلف للدارقطني (١٧٣٣/٣) قال: روح بن صلاح بن سيابه يروى عن ابن لهيعة وعن الثوري وغيرهما كان ضعيفاً في الحديث سكن مصر .اهـ .

ومثله لابن ماكولا في الإكمال (١٥/٥) وابن عدي في الكامل (١٠٠٥/٣) .

وهذا جرح مبهم غير مفسر فيرد في مقابل التعديل المذكور قبله كما هو مقرر .

مثاله قول الحافظ في مقدمة الفتح (ص ٤٣٧) في ترجمة (محمد ابن بشار بن بندار) ضعفه عمرو بن علي الفلاس، ولم يذكر سبب ذلك، فما عرجوا على تجريحه . ا هـ .)[1] انتهى .

وأما من ناحية الدلالة فهي واضحة؛ حيث إن النبي ﷺ قد توسل لله تعالى بحقه وبحق الأنبياء عليهم السلام من قبله وهو بعد رحيلهم، وبتعبير أتباع

---

(١) رفع المنارة لمحمود سعيد ممدوح: ١١٥ .

ابن تيمية وهم أموات .

الدليل الثالث: ما رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة في سننه، وابن الجعد في مسنده، وابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني في كتاب الدعاء، والسيوطي في الدر المنثور عن ابن مردويه[1]، وغيرهم، واللفظ لابن ماجة:

(عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: (**اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك**، وأسألك بحق ممشاي هذا؛ فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك) .

في الزوائد: هذا إسناد مسلسل بالضعفاء . عطية وهو العوفي، وفضيل بن مرزوق، والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء[2] .

لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده) انتهى كلام ابن ماجة .

قال صاحب رفع المنارة: (وإسناد هذا الحديث من شرط الحسن، وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطي في (المتجر الرابح

---

(١) مسند أحمد ٣: ٢١، سنن ابن ماجة ١: ٢٥٦، مسند ابن الجعد: ٢٩٩، المصنف ٧: ٢٩، الدر المنثور ٢: ٣٦ .

(٢) لا يخفى أن من اتهمهم بالكذب لم يكونوا كما قال، بل هناك من وثقهم واعتمدهم وسيأتي بيان ذلك .

في ثواب العمل الصالح) (ص ٤٧١ـ٤٧٢)، والحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ الحافظ المنذري كما في (الترغيب والترهيب) (٢٧٣/٣)، والحافظ العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء) (٢٩١/١)، والحافظ ابن حجر العسقلاني في (أمالي الأذكار) (٢٧٢/١)، وقال الحافظ البوصيري في (مصباح الزجاجة) (٩٩/١): لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده . ا هـ .

فهؤلاء خمسة من الحفاظ رحمهم الله تعالى صححوا أو حسنوا الحديث وقولهم حقيق بالقبول والوقوف عنده والإذعان إليه)[1] .

ودلالة الحديث على المطلوب واضحة؛ فإن السائلين أعم من الأحياء والأموات .

هذا بعض ما يرتبط بالأحاديث، وأما ما يرتبط بالآثار عن الصحابة والتابعين وتابيعهم فكثير نقتصر على بعضها أيضاً فمنها :

الأول: ما أخرجه الدارمي في سننه بسنده عن أوس بن عبد الله قال قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق)[2] .

قال الحافظ ابن الصديق المغربي: (ضعّف الألباني هذا الأثر بسعيد بن زيد ، وهو مردود لأن سعيداً من رجال مسلم، ووثقه يحيى بن معين .

---

(١) رفع المنارة لمحمود سعيد ممدوح: ١٣٤ – ١٣٥ .

(٢) سنن الدارمي ١: ٤٣ .

وضعّفه أيضاً باختلاط أبي النعمان، وهو تضعيف غير صحيح؛ لأن اختلاط أبي النعمان لم يؤثر في روايته، قال الدارقطني: تغيّر بأخرة وما ظهر له بعد اختلاطه حديث منكر وهو ثقة .

وقول ابن حبان: وقع في حديثه المناكير الكثيرة بعد اختلاطه، ردّه الذهبي فقال: لم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثاً منكراً والقول فيه ما قال الدارقطني، وابن تيمية كذّب أثر عائشة، ولا عبرة به، لجرأته على تكذيب ما يخالف هواه)[1] .

وهو واضح في أمرهم بالتوسل بالنبي ﷺ بعد رحيله .

الثاني: المناظرة المعروفة بين إمام المالكية وأبي جعفر المنصور ففي كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض:

حدثنا ابن حميد قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدّب قوماً فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[2] ، ومدح قوماً فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[3] ، وذمّ قوماً

---

(١) إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي ﷺ: ٢٣ـ٢٥ .

(٢) سورة الحجرات: ٢ ، في المصدر ذكر بعض الآية وقال: الآية، فأكملناها وكذا الباقي .

(٣) سورة الحجرات: ٣ .

فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[١] .

وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً ، فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ **فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم** عليه السلام **إلى الله تعالى** يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾[٢] .

وقال الحصني الدمشقي في دفع الشبه عن الرسول ﷺ بعد أن ذكر المناظرة المتقدمة:

(القصة معروفة مشهورة، ذكرها غير واحد من المتقدمين والمتأخرين بأسانيد جيدة .

ومنهم القاضي عياض في أشهر كتبه، وهو (الشفاء) المشهور بالحسن والإتقان في سائر البلدان .

ومنهم الإمام العلامة هبة الله في كتابه (توثيق عرى الإيمان) .

وقد اشتملت هذه القصة على تعظيمه بعد وفاته، وأنه حي، والتوسل به، وحسن الأدب في حقه كما في حياته، وأن في الآية الحث على المجيء إليه ليستغفر له، وليس في الآية تعرض لزمن حياته دون الوفاة، وكذا فهم العلماء، مالك وغيره ـ كما يأتي إن شاء الله تعالى ـ العموم، واستحبوا لمن زار قبره المكرم أن يتلو هذه الآية،

(١) سورة الحجرات: ٤ .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢ : ٤١ .

ويستغفر ويتوسل به ويطلب الشفاعة منه .

ولم نعلم أن أحداً طعن في قصة مالك إلا هذا الفاجر ابن تيمية، فإنه لما كان فيها هذه الفضائل طعن فيها، وقال: إنها مكذوبة ، فإن هذا شأنه، إذا وجد شيئاً لا مساس فيه لما ابتدعه قال به وقبله ولم يطعن، وإذا وجد شيئاً على خلاف بدعته طعن فيه وإن اتفق على صحته، ولا يذكر شيئاً على خلاف هواه وإن اتفق على صحته ، لا سيما إذا كان آية أو خبراً عن رسول الله ﷺ ، ولو أمكنه أن يطعن في الآية لفعل، إلا أنه تعرض لتخصيصها، وهي دعوى مجردة وعلى خلاف ما فهمه العلماء من العموم ووقع العمل عليه . فمن ادعى التخصيص بغير دليل سمعي ظاهر الدلالة قطعنا بخطئه واتهمناه، واستدللنا بذلك على استنقاصه سيد الأولين والآخرين الكامل المكمل، وهو كفر بإجماع أهل التوحيد)[1] .

وفي هذا كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد؛ فإن ما مرّ أدلة واضحة على جواز التوسل بل على حسنه، وقد ذهب أعلام السنة إلى جوازه أيضاً ، وسننقل بعض ما حكي عنهم فيما بعد:

الحالة الرابعة: التوسل به في عرصات القيامة .

ويدخل فيه ما سيأتي في مسألة الاستغاثة من الرواية الصحيحة فانتظر .

---

(١) دفع الشبه عن الرسول ﷺ: ٤١، ولا يخفى أن مؤلفه الحصني الدمشقي من علماء أهل السنة الذين وصفوه بالإمام، ومدحوه بالزهد والتقشف .

رأي علماء أهل السنة في التوسل :

ذهب الكثير من علماء السنة من مختلف المذاهب إلى جواز التوسل، ونقل كلماتهم في ذلك تستوعب الكثير منا، وتخرجنا عن القصد، فلهذا نقتصر على نقل بعضها .

قال مفتي الشافعية في الدرر السنية : (قال العلامة ابن حجر في كتابه المسمى بالخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان في الفصل الخامس والعشرين: إن الإمام الشافعي أيام هو ببغداد كان يتوسل بالإمام أبي حنيفة يجئ إلى ضريحه يزور فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته، وقد ثبت أيضاً أن الإمام أحمد توسل بالإمام الشافعي حتى تعجب ابنه عبد الله ابن الإمام أحمد فقال له الإمام أحمد : إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن، ولما بلغ الإمام الشافعي أن أهل المغرب يتوسلون إلى الله تعالى بالإمام مالك لم ينكر عليهم .

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي: من كانت له إلى الله حاجة وأراد قضاءها فليتوسل إلى الله تعالى بالإمام الغزالي .

وذكر العلامة ابن حجر في كتابه المسمى بالصواعق المحرقة لإخوان الضلال والزندقة : أن الإمام الشافعي توسل بأهل البيت النبوي حيث قال:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي[1]

---

(١) الدرر السنية في الرد على الوهابية لأحمد زيني دحلان: ٢٧ – ٢٨ .

وفي كتاب مغني المحتاج: (خاتمة: سئل الشيخ عز الدين: هل يكره أن يسأل الله بعظيم من خلقه كالنبي والملك والولي ؟

فأجاب بأنه جاء عن النبي ﷺ أنه علّم بعض الناس: اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة إلخ، فإن صح فينبغي أن يكون مقصوراً عليه عليه الصلاة والسلام؛ لأنه سيد ولد آدم، ولا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة؛ لأنهم ليسوا في درجته ويكون هذا من خواصه اهـ .

والمشهور أنه لا يكره بشيء من ذلك)[1] .

وقال صاحب رفع المنارة:

(يقول ابن مفلح الحنبلي في الفروع ١: ٥٩٥: (ويجوز التوسل بصالح، وقيل: يستحب، قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي: **إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه**، وجزم به في المستوعب وغيره)[2] .

ويشير بقوله: (وجزم به في المستوعب) إلى ما ذكره صاحب المستوعب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن إدريس السامري من علماء الحنابلة في كتابه المستوعب، باب زيارة قبر الرسول ﷺ:

---

(١) مغني المحتاج لمحمد بن أحمد الشربيني ١: ١٨٤ .

وقد عرف بـ: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج شرح الشيخ محمد الشربيني الخطيب عين أعيان علماء الشافعية في القرن العاشر الهجري، على متن المنهاج لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي من أعلام علماء الشافعية في القرن السابع الهجري .

(٢) رفع المنارة لمحمود سعيد ممدوح: ٢٣ .

(وإذا قدم مدينة الرسول ﷺ استحب له أن يغتسل لدخولها، ثم يأتي مسجد الرسول ﷺ ويقدم رجله اليمنى في الدخول، ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحية ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره، وذكر كيفية السلام والدعاء إلى آخره ومنه:

اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية، وإني قد أتيت نبيك مستغفراً فأسئلك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، **اللهم إني أتوجه إليك بنبيك** ﷺ، وذكر دعاء طويلاً، ثم قال: وإذا أراد الخروج عاد إلى قبر رسول الله ﷺ فودع[1].

وقال الإمام السبكي:

(... وحسبك أن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل، قول لم يقله عالم قبله، وصار بين أهل الإسلام مثلة !! وقد وقفت له على كلام طويل في ذلك رأيت من الرأي القويم أن أميل عنه إلى الصراط المستقيم، ولا أتتبعه بالنقض والإبطال، فإن دأب العلماء القاصدين لإيضاح الدين وإرشاد المسلمين، تقريب المعنى إلى أفهامهم، وتحقيق مرادهم، وبيان حكمه، ورأيت كلام هذا الشخص بالضد من ذلك، فالوجه الإضراب عنه.

وأقول: إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال: **قبل خلقه، وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته، في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة**، وهو على ثلاثة أنواع:

---

(١) عنه تطهير الفؤاد للشيخ محمد بخيت الحنفي من علماء الأزهر: ٥٤ .

النوع الأول: أن يتوسل به، بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به، أو بجاهه، أو ببركته، فيجوز ذلك في الأحوال الثلاثة، وقد ورد في كل منها خبر صحيح ...)(١) .

بل حتى ابن تيمية اعترف بجواز التوسل، ولا ندري هل كان ذلك تقية منه! أو عدولاً عن رأيه! قال تلميذه ابن كثير: (قال البرزالي: وفي شوال منها شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقي الدين وكلموه في ابن عربي وغيره إلى الدولة، فردوا الأمر في ذلك إلى القاضي الشافعي، فعقد له مجلس وادعى عليه ابن عطاء بأشياء فلم يثبت عليه منها شيء، لكنه قال: لا يستغاث إلا بالله، لا يستغاث بالنبي استغاثة بمعنى العبارة، **ولكن يتوسل به ويتشفع به إلى الله**، فبعض الحاضرين قال: ليس عليه في هذا شيء، ورأى القاضي بدر الدين بن جماعة أن هذا فيه قلة أدب ...)(٢) .

وأختم هذه الجهة بما ذكره العلامة الأميني في غديره:

(قال الأميني: لا يسعنا إيقاف الباحث على جل ما وقفنا عليه من كلمات ضافية لأعلام المذاهب الأربعة في المناسك وغيرها حول التوسل بالنبي الأقدس صلى الله عليه وآله ولو ذكرناها برمتها لتأتي كتاباً حافلاً، وقد بسط القول فيه جمع لا يستهان بعدتهم منهم:

١ـ الحافظ ابن الجوزي المتوفى ٥٩٧ في كتاب [الوفاء في فضائل المصطفى] جعل فيه بابين في المقام: باب التوسل بالنبي، وباب

---

(١) شفاء السقام لتقي الدين السبكي: ٢٩٣ .

(٢) البداية والنهاية ١٤: ٥١ .

الاستشفاء بقبره .

٢ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن النعمان المالكي المتوفى ٦٧٣ في كتابه [مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام]، قال الخالدي في صلح الأخوان: هو كتاب نفيس نحو عشرين كراساً . وينقل عنه كثيراً السيد نور الدين السمهودي في (وفاء الوفاء) في الجزء الثاني في باب التوسل بالنبي الطاهر .

٣ـ ابن داود المالكي الشاذلي . ذكر في كتابه [البيان والاختصار] شيئاً كثيراً مما وقع للعلماء والصلحاء من الشدائد فالتجئوا إلى النبي صلى الله عليه وآله فحصل لهم الفرج .

٤ـ تقي الدين السبكي المتوفى٧٥٦ في (شفاء السقام) ص١٢٠ـ١٣٣.

٥ـ السيد نور الدين السمهودي المتوفى٩١١ في (وفاء الوفاء) ٢ ص ٤١٩ـ٤٣١ .

٦ـ الحافظ أبو العباس القسطلاني المتوفى٩٢٣ في (المواهب اللدنية).

٧ـ أبو عبد الله الزرقاني المصري المالكي المتوفى ١١٢٢، في شرح المواهب ٨ ص ٣١٧ .

٨ ـ الخالدي البغدادي المتوفى ١٢٩٩ في [صلح الأخوان] وهو أحسن ما ألّف في الموضوع فقد جمع شوارده في سبعين صحيفة، وأفرد فيه رسالة رداً على كلمة السيد محمود الآلوسي في التوسل بالنبي ﷺ طبعت في عشرين صحيفة بمطبعة (نخبة الأخبار) سنة ١٣٠٦ .

٩ـ العدوي الحمزاوي المتوفى ١٣٠٣ في (كنز المطالب) ص١٩٨ .

١٠ـ العزامي الشافعي القضاعي في [فرقان القرآن] المطبوع مع

[الأسماء والصفات] للبيهقي في ١٤٠ صحيفة وهو كتاب قيم أدى للكلام حقه. ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾[1].[2]

فالحاصل إلى هنا: أن ما يقوم به المسلمون من التوسل بالنبي ﷺ أو بالأولياء لا شيء فيه، ولا شبهة تعتريه، ولا يوجب الشرك من قريب ولا بعيد.

لماذا لا ندعو الله مباشرة؟

ربما يطرح هذا السؤال فلابد من الإجابة عليه لإكمال البحث، وصيغة السؤال بالنحو التالي: لماذا لا تدعون الله مباشرة وقد قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3]، فهل الله لا يسمع النداء أو يحتاج إلى واسطة؟!

والجواب عن ذلك أولاً: إن الدعاء في حالة التوسل هو دعاء لله تعالى مباشرة ولكن أخذ فيه التوسل بنبيه أو بوليه، فيقول المتوسِّل: اللهم إني أسألك أن تقضي حاجتي بنبيك نبي الرحمة محمد ﷺ، فلا يتنافى مع قوله تعالى: (ادعوني أستجب لكم).

ثانياً: إن الملاحظ أن كثيراً من الناس يدعون ولا يستجيب الله تعالى لهم، فنسأل: هل الله تعالى أخلف وعده؟ حاشا ساحة قدسه أن تتلوث بهذا الفعل القبيح، فالأمر في عدم الاستجابة ليس من جانب الله تعالى، وإنما هو من جانب البشر أنفسهم؛ فإنهم يدعون الله وقد ارتكبوا كبائر الذنوب وصغائرها وملئت بطونهم من الحرام، فلا

(١) سورة الإسراء: ٥٧.

(٢) الغدير ٥: ١٤٥.

(٣) سورة غافر: ٦٠.

يستجيب لهم ربهم وهم قائمون على المعصية؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١]، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٢].

فهل يبقى العبد هكذا؟ أو يتوسل إلى الله تعالى بخاصة خلقه المصطفين، الذين وفوا بعهده فيستجيب الله تعالى دعاءهم فيه؟

لاشك أن يختار العبد العارف بنفسه أنه من العاصين هذا الطريق القرآني حيث يقول عن أولاد النبي يعقوب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣]، ويقول في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٤].

فلماذا يأتون للرسول ﷺ ويستغفرون الله عنده ويستغفر لهم الرسول ﷺ ثم يجدون الله تواباً رحيماً؟ ولماذا لم يأمرهم الله أن يستغفروا وهم في بيوتهم وبينهم وبين أنفسهم؟

فالله سبحانه وتعالى هو الذي أراد من العاصين أن يتوسلوا بنبيه نبي الرحمة محمد ﷺ، ولعل السبب في ذلك؛ أن الله تعالى أرسل نبيه رحمة للعالمين من الأولين والآخرين، فلا يقتصر الأمر على من كان في حضرته وحال حياته، وقبول دعاء العاصي الذي توسّل بالرسول ﷺ

---

(١) سورة المائدة: ٢٧ .

(٢) سورة البقرة: ٤٠ .

(٣) سورة يوسف: ٩٧-٩٨ .

(٤) سورة النساء: ٦٤ .

من مصاديق كونه رحمة للعالمين، وبذلك أيضاً يعرف الناس منزلته عند الله تعالى وعظيم مقامه، وأيضاً تكون استجابة الدعاء لهم بتوسلهم به دليلاً على أنه الصادق دون من سواه؛ إذ لو توسلوا بسواه ممن لم يرتضه الله لرجعوا خائبين خاسرين.

وكذلك الحال بالنسبة لأهل بيته المطهرين من الرجس، الذين قرنهم الرسول ﷺ بالقرآن الكريم في حديث الثقلين؛ فإن استجابة الدعاء بالتوسل بهم دليل على أنهم أعلام الحق والهدى وسبل النجاة من الردى، وسيأتي بيان ذلك فانتظر.

التوسل بأهل البيت عليهم السلام :

البحث في إثبات جواز التوسل بأهل البيت عليهم السلام يخرجنا عن خطة البحث، ولكن نقتصر على إشارة مختصرة قصيرة، تغني في محل البحث عن العبائر الكثيرة، استفدناها من أستاذنا الكبير الشيخ الوحيد الخراساني حفظه الله حيث أفاد في مجلس درسه الشريف ما ملخصه:

ورد في روايات الخاصة والعامة عن الرسول ﷺ هذا المضمون: (مثل أهل بيتي في أمتي كمثل باب حطة في بني إسرائيل، من دخله غفرت ذنوبه)[1]، وعندما نرجع إلى قوله تعالى في سورتي البقرة والأعراف:

(١) راجع لمعرفة أسانيد هذا الحديث المقترن بحديث السفينة كتاب خلاصة عبقات الأنوار لأعجوبة البحث والفكر الآية الكبرى السيد حامد النقوي اللكهنوي قدس سره ٤ : ١٥ وما بعدها فقد استوعب البحث جداً على عادته في رد مزاعم المخالفين.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[1] ، ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾[2] .

نلاحظ أن باب حطة جعل لبني إسرائيل وسيلة لمغفرة الذنوب، فيأتون إليه ساجدين خاشعين مستغفرين ويقولون حطة فيغفر الله لهم، وإن لم يفعلوا ما أمروا به لم يقبل الله منهم ولا يغفر لهم، بل عبّر عن من بدّل الذي قيل لهم بأنه ظالم، واستحق العقاب من الله تعالى .

والحال هو الحال في باب حطة أمة النبي محمد ﷺ ، وهم أهل بيته عليهم السلام فقد جعلوا باب حطة لذنوبهم، فمن يذنب يأتي لهذا الباب خاشعاً ويدعو الله تعالى مستغفراً فيغفر له ذنبه، ومن لم يفعل ما أمره به الرسول ﷺ كان ممن بدل قولاً غير الذي قيل لهم، فإذن لابد للعاصين من أمة النبي محمد ﷺ من التوسل بهم حتى يقبل الله منهم ويستجيب دعاءهم ويغفر لهم، والتوسل بهم فرع معرفتهم عليهم السلام .

---

(١) سورة البقرة: ٥٨ـ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف: ١٦١ـ١٦٢ .

المسألة الثانية: في الاستغاثة بغير الله

جاء في تاج العروس: ([غوث]: غوث الرجل، واستغاث: صاح: واغوثاه، وتقول: ضرب فلان فغوث تغويثاً، قال: واغوثاه، قال شيخنا: وقد صرح أئمة النحو بأن هذا هو أصله، ثم إنهم استعملوه بمعنى صاح ونادى طلباً للغوث)[1] .

ومعنى الاستغاثة في محل البحث طلب الغوث، وهو يكون لرفع مهمة أو لطلب قضاء حاجة ويكون بحرف النداء عادة كأن تقول: يا الله أنقذني من ورطتي! أو يا زيد أنقذني من عدوي، فتلتقي الاستغاثة بالدعاء والنداء .

والفرق بينها وبين التوسل بحسب ظاهر اللفظ من وجهين:

الأول: إن في التوسل أربعة أطراف: المتوسِّل، وهو الداعي، والمتوسَّل به، وهو النبي أو الولي، والمتوسَّل إليه، وهو الله تعالى، والمتوسَّل من أجله، وهي الحاجة التي يراد تحصيلها .

وفي الاستغاثة ثلاثة أطراف: المستغيث، وهو الداعي أو المنادي، والمستغاث به، وهو المدعو أو المنادى ـ بالفتح ـ، والمستغاث من أجله وهي الحاجة التي يراد تحصيلها .

---

(١) تاج العروس للزبيدي مادة غوث، ٣: ٢٤٢ .

الثاني: إن الخطاب في التوسل موجّه في اللفظ إلى الله تعالى، وأخذ في الخطاب ذات الحبيب أو حقه أو جاهه أو حرمته كأن يقول: اللهم اقض لي حاجتي بنبيك أو بحرمة نبيك ...

وأما في الاستغاثة فالخطاب في ظاهر اللفظ موجّه للمستغاث به، فيقول المستغيث: يا رسول الله أدركني مثلاً، ولكن سيأتي أن الاستغاثة هي توسل حقيقة، وتوجيه الخطاب للمستغاث به ضرب من المجاز.

تفصيل ابن تيمية لأقسام الاستغاثة :

إذا اتضح هذا نقول: قد فصّل ابن تيمية وأتباعه في الاستغاثة بالمخلوق بين الاستغاثة بالحي والاستغاثة بالميت، كما فصّلوا القسم الأول إلى قسمين فتكون الأقسام ثلاثة:

القسم الأول: الاستغاثة بالحي فيما يقدر عليه غير الله تعالى .

القسم الثاني: الاستغاثة بالحي فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

القسم الثالث: الاستغاثة بالميت مطلقاً .

أما القسم الأول فلا شيء فيه، ومثاله من استغاث بأخيه لنصرته على عدوه، أو لإنقاذه من غرقه .

وأما القسم الثاني والثالث فهما من الشرك الأكبر؛ أما القسم الثاني فلأن الفعل المطلوب لا يقدر عليه إلا الله تعالى وقد طلب من غيره، وأما القسم الثالث فلأن الميت لا يقدر على شيء .

بطلان أساس القسمة الذي اعتمده ابن تيمية :

ونقول في تحقيق المسألة: إن الأساس الذي استندوا إليه في القسمة وبنوا عليه الشرك وعدمه غير صحيح؛ وذلك لما تقدم من أن جميع أفعال الخلق إنما هي بقدرة من الله تعالى أعطاها لخلقه، صغيرة كانت أم كبيرة، عادية أم خارقة للعادة، فالتعبير عن بعض الأفعال بأنه مما يقدر عليه المخلوق، وأفعال لا يقدر عليها المخلوق، بل لا يقدر عليها إلا الله تعالى غير صحيح، بل مما يوقع العبد في الشرك من حيث لا يعلم ؛ فإنّ الله تعالى إن أعطى العبد القدرة على فعل شيء كان العبد قادراً عليه بإقدار من الله تعالى ، وإن لم يعطه القدرة لم يكن قادراً، بلا فرق بين الخارق للعادة وغيره، فأعطى النبي عيسى عليه السلام القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وهذه أفعال لا يقدر عليها الا الله تعالى بحسب تعبيرهم، بينما قام بها العبد المخلوق! فهو إنما قام بها لأن الله تعالى أعطاه القدرة عليها، فالقول بأن هذا فعل يقدر عليه العبد، وذلك لا يقدر عليه إلا الله يوحي بأن العبد في الأول قادر على الإتيان بالفعل مختاراً مستقلاً وهذا هو عين الشرك .

الصحيح في أساس القسمة :

فالصحيح في أساس القسمة من حيث إيجاب الشرك وعدمه أن يقال: إن الاستغاثة بالمخلوق:

إن كانت بقصد أنه فاعل مختار مستقل بالفعل عن الله تعالى فهو شرك، سواء أكان الفعل المطلوب أمراً عادياً أم كان خارقاً للعادة،

فلو استغاث الغريق بالواقف على الشاطئ بقصد أنه ينجيه بقوته مستقلاً عن الله تعالى كان شركاً حتى لو كان الفعل المطلوب مقدوراً لذلك الواقف من حيث كونه أمراً عادياً .

وإن كانت الاستغاثة بقصد أنه فاعل قادر على الفعل بإقدار من الله تعالى فليس بشرك حتى لو كان الفعل المطلوب أمراً خارقاً للعادة، فلو طلب العبد من نبي الله عيسى عليه السلام أن يشفيه من البرص معتقداً بأنه قادر على ذلك بما أعطاه الله تعالى من القدرة لم يكن ذلك شركاً .

ولا يفرق في هذا التقسيم بين الأفعال حتى نقول: هذا فعل لا يقدر عليه الا الله، وذاك فعل يقدر عليه غير الله، ولا بين الحالات حتى نقول: طلبت الفعل من الحي أو من الميت .

مضافاً إلى أن الأنبياء والأوصياء أحياء عند ربهم يرزقون كما تقدم بيانه .

وملخص الكلام: أن الطلب سواء أكان من الحي أم من الميت، من القادر أم من غيره، إن كان بقصد أن المطلوب منه فاعل مستقل بالتصرف فهو شرك؛ لأنه جعل لله شريكاً ونداً، وإن كان بقصد أنه قادر بإقدار من الله تعالى فليس بشرك .

إذا اتضح هذا أضفنا لزيادة التوضيح:

أن الاستغاثة بالمخلوق تتصور على نحوين:

النحو الأول: أن يقول يا رسول الله، أو يا ولي الله كن شفيعي إلى الله في قضاء حاجتي، أو ادع الله أن يقضيها ونحو ذلك .

النحو الثاني: أن يقول يا رسول الله، أو يا ولي الله اقضِ ديني، أو اشفِ مريضي، أو انصرني على عدوي وغير ذلك .

وفي كليهما يأتي التقسيم المذكور، أي إن كانت المناداة بقصد أن المنادى قادر على الاستجابة والإغاثة مستقلاً فهو شرك، وإن كانت بقصد أنه قادر بإقدار من الله تعالى فليس بشرك، ولكن لا أحد من المسلمين يقصد المعنى الأول، بل جميعهم يعتقدون بأن المنادى لا يقدر على شيء إلا بإقدار الله تعالى له:

توضيح ذلك:

أما النحو الأول فمن الواضح أن المستغيث إنما طلب من المستغاث به الدعاء والشفاعة عند الله تعالى ليقضي الله حاجته، والدعاء من المستغاث به ـ وهو النبي ﷺ في المثال ـ أمر مقدور له حياً كان أو ميتاً؛ لما تقدم من أنه ﷺ حي، يسمع الكلام ويرد السلام، وكذلك الشهداء والأولياء، وهكذا الشفاعة فإن للنبي ﷺ مقام الشفاعة باتفاق المسلمين، فهي مقدورة له .

وأما النحو الثاني من الاستغاثة فهي وإن كانت استغاثة بالمخلوق وطلباً منه بحسب اللفظ إلا أنه يرجع إلى النحو الأول كما أفاده غير واحد من علمائنا الأبرار رضوان الله عليهم[1] بهذا البيان:

---

(١) كالشيخ الكبير الشيخ جعفر كاشف الغطاء في منهج الرشاد لمن أراد السداد: ٥٥٣ وما بعدها، والشيخ محمد جواد البلاغي في دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى: ٣٥، وفي الرد على الوهابية، والسيد محسن الأمين في كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب: ٢٣٣ـ ٢٣٥ .

أن الاستغاثة والطلب من الميت أو من الحي في الأمور التي عبّر عنها ابن تيمية وأتباعه بأنها لا يقدر عليها الا الله تعالى هو من باب المجاز في الإسناد، المسمى عند علماء البيان بالمجاز العقلي، وهو إسناد الفعل إلى غير ما هو له من سبب أو غيره مثل: (بنى الأمير المدينة) و (شفى الطبيب المريض)؛ فإن الباني الحقيقي للمدينة هم المهندسون والعمال، ولكن الأمير هو الآمر لهم وهو السبب في بنائها فنسب البناء إليه مجازاً، والشافي للمريض هو الله تعالى ولكن الطبيب سبب في ذلك فنسب الشفاء إليه مجازاً، هذا في الفعل الماضي وكذلك الحال في فعل الأمر كما لو قال المأمور لأميره: ابنِ لي بيتاً، فإنه لا يريد أن يقوم الأمير ببناء البيت بنفسه، وإنما يعطيه ما يبني به، أو يأمر البنائين ببنائه، ومع ذلك أسند البناء له؛ لأنه سبب .

وفي المقام أسند الفعل إلى المستغاث به مجازاً لكونه سبباً في قضاء حاجة المستغيث وإنجازها؛ لأن حصول ذلك كان بسبب دعائه وشفاعته، بمعنى أن الداعي يطلب من النبي أو الولي أن يستشفع الله تعالى فيه ويطلب من الله أن يقضي حاجته، ويكون القاضي للحاجة هو الله تعالى وحده، وإنما طلب قضاء الحاجة من النبي أو الولي وأسند الفعل إليه لكونه سبباً في قضاء حاجته، لا لأنه هو الذي يقضيها له، فهو من قبيل ما إذا استشفعت عند السلطان بعبده المقرّب عنده لقضاء حاجة لك فتقول للعبد: أريدها منك، وأنت تعرف أنه لا يقدر على قضائها بنفسه وإنما سيقضيها مولاه بسؤال العبد إياه .

واذا اتضح المراد يتضح أنه ليس في هذه الاستغاثة أي معنى من معاني الشرك أصلاً، بل يرجع إلى التوسل الذي تقدمت صحته وثبت

جوازه بل حسنه مفصلاً .

(ومن ذلك القبيل الألفاظ التي تفيد الرجاء، والتوكل، والاعتماد، والتعويل، والالتجاء، والاستغاثة بغير الله، فإن هذه العبارات لو بني على ظاهرها لم يبق في الدنيا مسلم، إذ لا يخلو أحد من الاستعانة على الأعداء، والاعتماد على الأصدقاء، والالتجاء إلى الأمراء، ونحو ذلك، إلا أنه إن قصد الملتجأ إليه والمعول عليه من المخلوقين له اختيار وتدبير في العالم لنفسه لا عن أمر الله، فذلك كفر بالله، وإلا فلا بأس)[1] .

والقرينة على ما قلناه:

(ظاهر حال المسلم؛ فإن كون المتكلم به مسلماً يعتقد ويقر بأن من عدا الله تعالى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلا بإقدار الله تعالى يكفي قرينة على ذلك .

ولهذا ذكر علماء البيان أن مثل (أنبت الربيع البقل) إذا صدر من الدهري كان حقيقة، وإذا صدر من المسلم كان مجازاً عقلياً كما تقدم تفصيله في المقدمات، وأي فارق بين (أنبت الربيع البقل) وبين ما نحن فيه ؟!

فليكن هذا الإسناد كإسناد الرزق وما يجري مجراه إلى غير الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ ﴾[2]، ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) ما بين القوسين للشيخ كاشف الغطاء في منهج الرشاد لمن أراد السداد .

(٢) سورة النساء: ٨ .

وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾[١]، ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾[٢]، والإغناء لا يقدر عليه إلا الله فكيف نسبه إلى الرسول ﷺ وجعله شريكا لله في ذلك؟! وهل هو إلا كالرزق الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى ؟! وهم قد جعلوا قول ارزقني: شركاً وكفراً.

وقد نسب الله تعالى إلى عيسى عليه السلام الخلق وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بقوله حكاية عنه: ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾[٣]، فكيف جاز نسبة ذلك إليه ولم يكن كفراً ولا شركاً ولم يجز نسبة شفاء المريض وقضاء الدين والرزق ونحو ذلك إلى النبي أو الولي بإذن الله؟! فإن كان المانع أنه لا يقدر عليه إلا الله فالكل كذلك، وإن كان عدم القدرة بعد الموت فهي حاصلة بما دل على حياة الأنبياء بل وغيرهم في عالم البرزخ.

وإلى ما ذكرناه أشار عالم المدينة السمهودي الشافعي في كتابه وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى[٤] بقوله: وقد يكون التوسل به ﷺ بطلب ذلك الأمر منه بمعنى أنه ﷺ قادر على التسبب فيه بسؤاله وشفاعته إلى ربه فيعود إلى طلب دعائه وإن اختلفت العبارة، ومنه قول القائل له : أسألك مرافقتك في الجنة الحديث ، ولا يقصد به إلا

---

(١) سورة التوبة: ٥٩ .

(٢) سورة التوبة: ٧٤ .

(٣) سورة آل عمران: ٤٩ .

(٤) وفاء الوفاء ٢: ٤٢١، طبع عام ١٣٢٦ بمصر .

كونه ﷺ سبباً وشافعاً . انتهى .

فمرافقته في الجنة لا يقدر عليها غير الله نظير غفران الذنب وشفاء المريض[١] .

هذا هو الجواب الذي استفدناه من غير واحد من الأعلام وهو واضح جداً، بل يمكن أن نترقى ونقول:

حتى لو وجّه الخطاب لنفس النبي أو الولي على أن يقضي هو حاجته بنحو الحقيقة ولكن باعتقاد أنه قادر على قضاء الحاجة بإقدار من الله تعالى وإذن منه وليس مستقلاً عنه تعالى فليس بشرك أيضاً؛ إذ لم يجعل لله تعالى نداً في التدبير، ولا شريكاً في التأثير، بل جعل المخلوق قادراً بإقدار من الله تعالى، أي أن قدرته في طول قدرة الله تعالى ومستمدة من مدده تعالى، فكما أنه أقدره على القيام بالأمور العادية أقدره على الأمور الخارقة للعادة فأين الشرك ؟! كما مثلنا سابقاً بمن يطلب من النبي عيسى عليه السلام في زمانه أن يشفيه أو يشفي مريضه أو يحيي ميّته باعتقاد أنه قادر على ذلك بإقدار من الله تعالى، فكما أن هذا ليس بشرك، وكما أن طلب قضاء الحاجات العادية المقدورة من المخلوق ليس بشرك، فما نحن فيه ـ وهو طلب الأمر غير المقدور لعامة الناس، والمقدور لخاصة خلق الله بإقدار من الله تعالى في اعتقاد السائل ـ ليس بشرك .

وأما القول بأن الله تعالى لم يُقْدِر أنبياءه بعد موتهم على قضاء الحاجات الغيبية من شفاء المرضى وغيرها فهو خارج عن محل البحث؛

---

(١) ما بين القوسين نقلناه من كشف الارتياب: ٢٣٢ بلفظه .

لأن البحث في أن طلب ذلك منهم هل هو شرك أو لا ؟ وأما أنه أقدرهم أم لم يقدرهم فهو تسليم بأنه ليس بشرك وهذا ما نريد إثباته .

وفي الأخير نقول بما قاله العلامة الأمين ﷺ : (ولو فرض أننا جهلنا قصده لوجب حمله على ذلك سواء صدر من عارف أو عامي؛ لوجوب حمل أفعال المسلمين وأقوالهم على الصحة مهما أمكن حتى يعلم الفساد ، وعدم جواز تكفير المقر بالشهادتين إلا بما يوجب كفره على اليقين، وعدم جواز التهجم على الدماء والأموال والأعراض بغير اليقين) .

وكما قال العلامة البلاغي ﷺ : (والواجب على كل مسلم، بل كل متدين، بل كل إنسان، أن لا يتهجم على عمل فيحمله على الوجه القبيح مع أن له وجهاً حسناً مشروعاً، يعرفه من يحمله الورع على التثبت والتبين، لئلا يصيب الناس بجهالة)[1] .

الأحاديث الدالة على جواز الاستغاثة ووقوعها :

فتبيّن إلى هنا بعد البيان والتوضيح عدم المنع من الاستغاثة ، وأنها ليست من موجبات الشرك، ومع ذلك نضيف: بأن الأدلة الصحيحة قد دلّت على جوازها ووقوعها في زمن الرسول ﷺ ، وحصولها بعده من أشخاص يعتني أهل السنة بقولهم وفعلهم، ولو كانت شركاً لما أمر بها الرسول ﷺ ومنع منها ، وكذلك الصحابة والتابعون وتابعوهم والعلماء الذين جاؤا من بعدهم فمن الأحاديث:

الحديث الأول: ما تقدم من حديث عثمان بن حنيف؛ فإن فيه: (يا

(١) دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى: ٣٥ .

محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي ﷻ فيقضي لي حاجتي)، وهذا نداء فهو استغاثة .

وقد قلنا سابقاً بأن هذا النداء صدر من الأعمى في حال غيابه عن النبي ﷺ ، وصدر من الرجل الذي علمه عثمان بن حنيف في زمان موت النبي ﷺ ؛ لأنه علمه إياه في زمان عثمان بن عفان فلا تغفل .

الحديث الثاني: ما رواه البخاري في صحيحه عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال سمعت عبد الله بن عمر قال: **قال رسول الله ﷺ**: ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم، وقال: إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ .

وزاد عبد الله حدثني الليث قال حدثني ابن أبي جعفر فيشفع ليقضى بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم)[1] .

إن قلت: إن هذه الاستغاثة تكون بعد حياة النبي ﷺ في الأخرى، وكلامنا في حال موته .

قلنا : بأن تقسيم ما يوجب الشرك من غيره على أساس الموت والحياة خطأ واضح كما تقدم، والعبرة باعتقاد المستغيث .

ويمكن أن تقول: بأن هذا الفعل مقدور لنبينا محمد ﷺ ؛ حيث طلب منه أن يدعو الله تعالى أن يفرج عنهم من البقاء في المحشر .

قلنا : بأن التقسيم على أساس أن الفعل مقدور للمستغاث به وعدمه

---

(١) صحيح البخاري ٢ : ١٣٠ .

خطأ أيضاً كما تقدم، مضافاً إلى أن طلب الشفاعة منه وهو في قبره، أو سؤاله الدعاء لله تعالى لقضاء الحاجة أمر مقدور أيضاً له ﷺ؛ لكونه حياً كما تقدم تفصيل ذلك .

الحديث الثالث: في مسند أبي يعلى: (عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا، فإن لله حاضراً في الأرض سيحبسه)[1] .

ورواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ: (يا عباد الله احبسوا علي)[2]، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير[3] .

وقريب منه ما في مجمع الزوائد: (عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينوا عباد الله . رواه الطبراني ورجاله ثقات)[4] .

وفي المعجم الكبير عن عتبة بن غزوان عن نبي الله ﷺ قال: إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد أحدكم عوناً وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل: يا عباد الله أغيثوني، يا عباد الله أغيثوني فإن لله عباداً لا نراهم، وقد جرب ذلك)[5] .

(١) مسند أبي يعلى ٩: ١٧٧ .

(٢) المعجم الكبير ١٠: ٢١٧ .

(٣) الجامع الصغير ١: ٧٩ .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ١٠: ١٣٢ .

(٥) المعجم الكبير ١٧: ١١٧ – ١١٨ .

وفي المجموع لمحيى الدين النووي: (وإذا انفلتت دابته نادى يا عباد الله احبسوا مرتين أو ثلاثاً فقد جاء فيها آثار أوضحتها في كتاب الأذكار، وجربت أنا هذا الثاني في دابة انفلتت منا وكنا جماعة عجزوا عنها فذكرت أنا هذا فقلت: يا عباد الله احبسوا فوقفت بمجرد ذلك، وحكى لي شيخنا أبو محمد بن أبي اليسر رحمه الله أنه جرّبه فقال في بغلة انفلتت فوقفت في الحال)[١] .[٢] .

---

(١) المجموع: ٤: ٣٩٦ .

(٢) وهنا فائدة ذكرها صاحب رفع المنارة تعقيباً على هذه الأحاديث ومثلها، نذكرها دفعاً لمن يريد تضعيفها كلها مع أن بعضها قد وثق قال:

(فائدة: إذا ورد حديث بسند ضعيف يصير من قسم المقبول الذي هو أعم من الصحيح والحسن إذا تلقته الأمة بالقبول، أما إذا عمل به بعض الأئمة ـ كحديثنا هذا ـ ففي عملهم تقوية له .

قال الحافظ البيهقي في السنن الكبرى (٥٢/٣) بعد أن روى حديث صلاة التسبيح ما نصه: وكان عبد الله بن المبارك يفعلها وتداولها الصالحون بعضهم عن بعض وفيه تقوية للحديث المرفوع. اهـ ونحوه لشيخه الحاكم في المستدرك (٣٢٠/١) .

والحديث عمل به الأئمة وجربوه:

١ـ ففي المسائل، وشعب الإيمان للبيهقي: قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج منها ثنتين راكباً، وثلاثة ماشياً، أو ثنتين ماشياً وثلاثة راكباً، فضللت الطريق في حجة وكنت ماشياً فجعلت أقول: يا عباد الله دلونا على الطريق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقعت على الطريق، أو كما قال أبي . ا هـ

٢ـ وبعد أن أخرج أبو القاسم الطبراني الحديث في معجمه الكبير (١١٧/١٧) قال: وقد جرب ذلك .

فهـذه الأحاديـث يقـوي بعـضها بعـضاً، وتـدل بوضـوح علـى جـواز الاستغاثة بغير الله تعالى؛ فإن من يستغيث بهم هم عباد الله، والخطاب لغائب عن الأنظار فيكون رداً على من منع؛ فإنهم قالوا بأن استغاثة الغائب كاستغاثة الميت شرك ! وهل يمكنهم أن يقولوا للنبي ﷺ: لماذا لا يستغيث بالله تعالى فهو أقرب إليه!

الآثار المنقولة عن الصحابة وغيرهم في الاستغاثة :

نقل في ذلك الشيء الكثير ونقتصر على ذكر بعضها روماً للاختصار:

الأول: في الشفاء للقاضي عياض إن عبد الله بن عمر خدلت رجله مرة فقيل له: أذكر أحب الناس إليك، فقال: وا محمداه فانطلقت رجله .

وجاء الخطاب والنداء للجمادات في أحاديث كثيرة منها أنه ﷺ كان إذا نزل أرضاً قال: يا أرض ! ربي وربك الله، فهذا نداء وخطاب

٣ـ قال الإمام النووي في الأذكار (ص ٢٣١) بعد أن ذكر الحديث ما نصه: حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنه انفلتت له دابة أظنها بغلة وكان يعرف هذا الحديث فقاله، فحبسها الله عليهم في الحال، وكنت أنا مرة مع جماعة فانفلتت منا بهيمة وعجزوا عنها فقلته فوقفت في الحال بغير سوى هذا الكلام . اهـ .

والحاصل أن للناقد مسلكين في تقوية هذا الحديث:

أحدهما: تقويته بالشواهد فيصير حسناً، ولا ريب في ذلك .

ثانيهما: تقويته بعمل الأمة به .

وأحد المسلكين أقوى من الآخر والله أعلم) . رفع المنارة: ١٨٦ـ١٨٧ .

لجماد ولا كفر ولا إشراك فيه؛ إذ ليس فيه اعتقاد إلوهية واستحقاق عبادة ولا اعتقاد تأثير لغير الله تعالى)[١] .

ولا يخفى أن ما فعله ابن عمر نوع من الاستغاثة بالنبي ﷺ ، والذي يظهر أنه كان بعد زمان حياته ﷺ .

الثاني: ما أخرجه ابن أبي شيبة بسنده عن أبي صالح عن مالك الدار، قال وكان خازن عمر على الطعام، قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتي الرجل في المنام فقيل له: ائت عمر فأقرئه السلام، وأخبره أنكم مسقيون ...)[٢] .

قال ابن حجر في فتح الباري: (وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري وكان خازن عمر قال أصاب الناس قحط في زمن عمر ...)[٣] .

وقال ابن الصديق المغربي: (وصححه أيضاً ابن كثير في البداية والنهاية ٧ / ٩٢ من طريق البيهقي)[٤] .

ولا يخفى أن ما قام به الرجل هو عين الاستغاثة ونداء الرسول ﷺ والطلب منه أن يستسقي لأمته، ومع ذلك لم ينكر عليه أحد من الصحابة، بل أخبر بأن استغاثته قبلت وبشر بالسقي .

---

(١) الدرر السنية في الرد على الوهابية أحمد زيني دحلان: ٣٣ .

(٢) المصنف ٧: ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٣) فتح الباري ٢: ٤١٢ .

(٤) إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي ﷺ للحافظ ابن الصديق المغربي: ٧-٨ .

الثالث: قال محيى الدين النووي في كتابه المجموع وهو يتحدث عن كيفية زيارة النبي ﷺ:

(... ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله ﷺ ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى، ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال:

(كنت جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١]، وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والإكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف فحملتني عيناي فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي إلحق الأعرابي فبشره بأن الله تعالى قد غفر له)[٢].

ففي هذه القضية استغاثة من الأعرابي وإجابة من صاحب القبر ﷺ وغفران من الله تعالى، واستحسان من العلماء إنشاد زائر الرسول ﷺ هذين البيتين عند قبره ﷺ.

وذكر هذه القصة صاحب مغني المحتاج بعد أن قال: (ومن أحسن

---

(١) سورة النساء: ٦٤.

(٢) المجموع ٨: ٢٧٤، وقد عرّف بهذا التعريف: المجموع شرح المهذب للإمام أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ.

ما يقوله الزائر بعد ذلك: يا خير ...، وأضاف بيتاً آخر وهو:

أنت الحبيب الذي ترجى شفاعته يوم الحساب إذا ما زلت القدم[1]

وتعرض لهذه القصة جماعة من علماء أهل السنة من دون أن يطعنوا فيها ولا في مضمونها مما يدلل على قبولهم لها واستحسانهم إياها، ولو رأوا فيها شيئاً من الشرك لمنعوا منها، منهم: عبد الله ابن قدامة في كتابه المغني ٣: ٥٨٨ـ٥٨٩، وعبد الرحمن بن قدامة في الشرح الكبير ٣: ٤٩٤ [2]، وابن كثير في تفسيره ١: ٥٣٢ وعبّر عنها بالمشهورة قال:

(وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾، وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ...إلخ).

وغيرهم كثير نكتفي بمن ذكرنا[3].

---

(١) مغني المحتاج لمحمد بن أحمد الشربيني ١: ٥١٢ – ٥١٣.

(٢) قالوا عنه: الشرح الكبير على متن المقنع تأليف الشيخ الإمام (شمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد ابن قدامة المقدسي) المتوفى سنة ٦٨٢ هـ. على مذهب إمام الأئمة (أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل الشيباني) مع بيان الخلاف سائر الأئمة وأدلتهم.

(٣) ومن المناسب جداً أن ننقل ما كتبه السيد حسن بن علي السقاف في هامش كتابه الإغاثة ص١٦ـ١٨:

[تنبيه]: المسألة تتعلق باستحباب زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ وهي: أنه قد

تلاعب أحد أتباع ابن تيمية بكلام الإمام النووي في الأذكار فحرفه اقتداء بمن قال الله فيهم (يحرفون الكلم عن مواضعه) وإني أسوق كلام الإمام النووي الأصلي الآن إن شاء الله تعالى ثم أردفه بالكلام المبدل لنتبين حقيقة الأمر، وليعشق من يعشق سلفية العصر على بينة فأقول:

كلام الإمام النووي الأصلي غير المحرف: في كتاب الحج من الأذكار (ص٣٠٦ طبع دار الفكر دمشق)، وكذا في المخطوط وباقي الطبعات وفي شرح الأذكار لابن علان ما نصه: (فصل في **زيارة قبر** رسول الله ﷺ وأذكارها): إعلم أنه ينبغي لكل من حج أن يتوجه إلى **زيارة رسول الله** ﷺ سواء كان ذلك طريقه أو لم يكن **فإن زيارته** ﷺ من أهم القربات وأربح المساعي وأفضل الطلبات فإذا توجه للزيارة أكثر من الصلاة والسلام عليه ﷺ في طريقه . فإذا وقع بصره على أشجار المدينة ... اهـ كلام الإمام النووي الأصلي .

كلام الإمام النووي المحرف الذي حرفه (عبد القادر الأرناؤوط) المتمسلف بأمر من سادته طمعاً في المادة: في كتاب الأذكار للإمام النووي (طبع دار الهدى الرياض ١٤٠٩هـ بإشراف وموافقة مراقبة المطبوعات برئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ص٢٩٥) ما نصه: فصل في **زيارة مسجد** رسول الله ﷺ: اعلم أنه يستحب من أراد **زيارة مسجد** رسول ﷺ أن يكثر من الصلاة عليه ﷺ في طريقه فإذا وقع بصره على أشجار المدينة ... .

فتأمل هذا التحريف ولا أدري كيف حصل هذا تحت أنظار رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة (!) علما بأن الكتاب إذا كان فيه كلمة توسل بالنبي ﷺ أو بيت من الشعر فيه مدح له ﷺ فإن عين رئاسة البحوث تضبطه وتصادر الكتاب وتمنع دخوله . فهل أصاب عين رئاسة البحوث العمى فلم تر هذا التحريف لأنه يوافق مشربها ؟!!! ثم تمادى المحقق المتمسلف المذكور فأسقط بعد صحيفة من كتاب الأذكار **قصة العتبي التي ذكرها الإمام النووي**؛ لأنها تخالف ذاك المشرب العكر، فهل هذه هي الأمانة العلمية ؟ ! وكان بإمكانه أن يعلق عليها بالإنكار كما فعل بعض إخوانه في طبعات أخرى دون أن يقترف هذا

الرابع: ما ذكره الذهبي في غير واحد من كتبه ولم ينكره:

(وروي عن أبي بكر بن أبي علي قال كان ابن المقرئ يقول: كنت أنا والطبراني وأبو الشيخ بالمدينة فضاق بنا الوقت فواصلنا ذلك اليوم فلما كان وقت العشاء حضرت القبر وقلت: يا رسول الله الجوع، فقال لي الطبراني: اجلس فإما أن يكون الرزق أو الموت، فقمت أنا وأبو

التحريف والتلاعب المشين الذي يؤدي إلى تشكيك المسلمين بما يطبع ويطرح بين أيدي عامة الناس من أمهات المراجع وكتب التراث.

سبب هذا التحريف فيما نرى:

أقول: والذي دعا المحقق والمشرف إلى أن يحرف عبارة الإمام النووي ويحذف منها هو التعصب لرأي ابن تيمية الحراني والذي أنكره عليه فحول علماء أهل السنة، وإليك بيان ذلك: قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣ / ٦٦): والحاصل أنهم ألزموا ابن تيمية بتحريم شد الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ وأنكرنا صورة ذلك ... . وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية ا هـ .

قلت: وهذا التحريف اعتاد عليه الحشوية المجسمة في كل عصر كما أثبتت ذلك وقائع التاريخ، وعندي على ذلك أمثلة تزيد على الثلاثمائة سأصدرها قريباً في رسالة أسردها فيها سرداً، وانظر إلى ما يقوله الإمام الحافظ التاج السبكي في كتابه (قاعدة في الجرح والتعديل ص ٤٨ من الطبعة الخامسة): وقد وصل حال بعض المجسمة في زماننا إلى أن كتب شرح (صحيح مسلم) للشيخ محي الدين النووي، وحذف من كلام النووي ما تكلم به على أحاديث الصفات، فإن النووي أشعري العقيدة فلم تحمل قوى هذا الكاتب أن يكتب الكتاب على الوضع الذي صنفه مصنفه . وهذا عندي من كبائر الذنوب، فإنه تحريف للشريعة وفتح باب لا يؤمن معه بكتب الناس وما في أيديهم من المصنفات فقبح الله فاعله وأخزاه ... الخ انتهى كلام الإمام الحافظ السبكي).

هذا ما أردنا نقله من كتاب الإغاثة ونقلناه بطوله للفائدة والعبرة والحيطة .

الشيخ فحضر الباب علوي ففتحنا له فإذا معه غلامان بقفتين فيهما شيء كثير، وقال شكوتموني إلى النبي ﷺ، رأيته في النوم فأمرني بحمل شيء إليكم[١] .

ولا يخفى أن مذهب ابن المقرئ في الأصول مذهب أحمد كما قال الذهبي في تذكرة الحفاظ قال: (قال أبو عبد الله بن مهدي: سمعت ابن المقرئ يقول: مذهبي في الأصول مذهب أحمد بن حنبل وأبي زرعة الرازي)[٢] .

وهذه القصة من أظهر أنواع الاستغاثة بالميت، فهل يتهم ابن المقري بالشرك ؟! وقد قال الذهبي في حقه: (ابن المقري محدث أصبهان، الإمام الرحال الحافظ الثقة أبو بكر محمد بن إبراهيم ابن علي بن عاصم بن زاذان الأصبهاني الخازن المشهور بابن المقرئ صاحب المعجم الكبير والأربعين حديثاً ...

قال ابن مردويه: هو ثقة مأمون صاحب أصول .

وقال أبو نعيم: محدث كبير ثقة صاحب مسانيد، سمع ما لا يحصى كثرة)[٣] .

وكيف يقره الطبراني وأبو الشيخ عليه وهما من هما ؟!

الخامس: ما ذكره الحصني الدمشقي في كتابه دفع الشبه عن

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣: ٩٧٤، سير أعلام النبلاء ١٦: ٤٠٠، تاريخ الإسلام ٢٧: ٣٩ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٣: ٩٧٥ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٣: ٩٧٣-٩٧٤ .

الرسول ﷺ:

(وقال ابن أبي ذرعة الصوفي: سافرت مع أبي ومع ابن حنيف إلى مكة، وأصابتنا فاقة شديدة، فدخلنا مدينة رسول الله ﷺ، وبتنا طاوين، وكنت دون البالغ فكنت أجيء إلى أبي غير دفعة، وأقول: أنا جائع، فأتى والدي إلى الحضرة الشريفة، وقال: يا رسول الله أنا ضيفك الليلة، وجلس على المراقبة، فلما كان بعد ساعة رفع رأسه وكان يبكي ساعة ويضحك ساعة، فقال: رأيت رسول الله ﷺ فوضع في يدي دراهم، وفتح يده فإذا فيها دراهم، وبارك الله تعالى لنا فيها إلى أن رجعنا (إلى) شيراز، فكنا ننفق منها[1] .

وعقد في كتابه فصلاً بعنوان: (الاستغاثة بالنبي ﷺ على طول التأريخ ولو من بعيد) وقال فيه:

(والمراد أن الاستغاثة بالنبي ﷺ واللواذ بقبره مع الاستعانة به، كثير على اختلاف الحاجات، وقد عقد الأئمة لذلك باباً، وقالوا: إن استعانة من لاذ بقبره وشكا إليه فقره وضره، توجب كشف ذلك الضر بإذن الله تعالى: فمن ذلك ما أخبر به يوسف بن علي قال: ركبتني ديون، فقصدت الخروج من المدينة الشريفة، ثم جئت إلى قبر رسول الله ﷺ، فاستغثت به في وفاء ديني، فنمت فرأيت النبي ﷺ، فأشار علي بالجلوس، فاستيقظت فقيض الله لي من وفّى ديني)[2] .

---

(١) دفع الشبه عن الرسول ﷺ: ١٥٦ .

(٢) دفع الشبه عن الرسول ﷺ : ١٦٠ .

أدلة ابن تيمية وأتباعه على المنع من الاستغاثة :

لقد اتضح مما تقدم صحة الاستغاثة وعدم كونها من موجبات الشرك، ولكن من المناسب أن نتعرض لأدلة المانعين ومناقشتها، وأهم ما يستندون إليه في ذلك آيات من القرآن الكريم نزلت في المشركين وطبقوها على المسلمين، ونكتفي بعرض بعضها وبيان جهة الخطأ في الاستدلال بها، ومنه يتضح الجواب في الباقي:

١- ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾(١) .

٢- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢) .

٣- ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾(٣) .

٤- ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾(٤) .

الجواب العام عن استدلال ابن تيمية وأتباعه بالآيات :

ولأجل الجواب عن جميع ما ذكروه من الاستدلال بالآيات لابدّ أن نقول بنحو عام: إن معنى الدعاء في اللغة هو النداء، والنسبة بين الدعاء

---

(١) سورة الجن: ١٨ .

(٢) سورة الأعراف: ١٩٤ .

(٣) سورة الأعراف: ١٩٧ .

(٤) سورة الرعد: ١٤ .

والعبادة هي نسبة العموم والخصوص من وجه بحسب الاصطلاح المنطقي، بمعنى أن المفهومين يلتقيان في مورد ويفترق كل منهما في مورد يختص به، كما هو الحال في النسبة بين الأبيض والطائر؛ فإن الطائر يجتمع مع الأبيض في الحمامة البيضاء، ويفترق الأبيض عن الطائر في الورق الأبيض، ويفترق الطائر عن الأبيض في الغراب الأسود.

والنسبة بين الدعاء والعبادة من هذا القبيل، فتجتمع العبادة والدعاء في دعاء من يعتقد فيه الداعي بأنه إله أو مدبر للكون أو لبعضه بالاستقلال، فيراه أنه مستحق للعبادة فيدعوه لقضاء حوائجه بخضوع وخشوع، كدعاء المؤمنين وتضرعهم وخضوعهم لله تعالى؛ فإنه دعاء وعبادة في الوقت نفسه .

وتفترق العبادة عن الدعاء في مثل الركوع والسجود لله تعالى والصوم؛ فإنه عبادة وليس بدعاء .

ويفترق الدعاء عن العبادة في مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ ﴾[1]، فإنه دعاء أي نداء وليس بعبادة، ومنه دعاء الإنسان لمثله عندما يناديه بأن يقضي له حاجة، فيقول له: يا فلان أنقذني من الغرق، أو انصرني، فهو دعاء ولكن ليس هو بعبادة .

إذا اتضح ذلك تتضح جهة الخطأ الذي ارتكبه ابن تيمية وأتباعه حيث جعلوا النسبة بين الدعاء والعبادة هي نسبة العموم والخصوص المطلق، بمعنى أنهم ادعوا بأن كل دعاء عبادة، وبما أن الاستغاثة أو دعاء غير الله دعاء فيكون عبادة فيكون شركاً !

(١) سورة النور: ٦٣ .

وبعبارة فنية: أنهم شكلوا قياساً منطقياً بهذا النحو:

الصغرى: الاستغاثة بالمخلوق دعاء.

الكبرى: كل دعاء عبادة.

النتيجة: الاستغاثة بالمخلوق عبادة له.

فنقول لهم: لقد أخطأتم في هذا القياس؛ لأن القياس المنتج لابد أن يتكرر فيه الحد الأوسط، ولم يتكرر في قياسكم هذا؛ لأن معنى الدعاء في الصغرى مغاير لمعناه في الكبرى وإن اتحدا في اللفظ، فالدعاء في الصغرى هو مطلق النداء، والدعاء في الكبرى هو الدعاء الخاص الذي يكون عن اعتقاد بإلوهية أو ربوبية المدعو.

وبعبارة أخرى: أنه ليس كل دعاء عبادة، فدعاء الإنسان لمثله لأجل قضاء حاجته ممن يعتقد فيه بأنه عبد من عباد الله لا يقدر على شيء باستقلاله ليس بعبادة قطعاً، وإلا لو كان عبادة لم يكن هناك فرق بين أن يطلب الحاجة من الحي أو من الميت، وبين أن تكون الحاجة مقدورة للعبد أو غير مقدورة له؛ لأن المدار في العبادة على دعواهم هو دعاء غير الله تعالى، وهذا الأمر يتحقق في دعاء المخلوق لقضاء الحاجة المقدورة، وهذا لا يقول به عاقل.

وأما إطلاق العبادة على دعاء المشركين لأصنامهم فلأن المشركين كانوا يعتقدون في آلهتهم الربوبية والتدبير المستقل ولو بنحو من الأنحاء كما مرّ تفصيله، ولا أقل أنهم يعتقدون فيهم أنهم يملكون مقام الشفاعة النافذة بحيث يستطيعون أن يشفعوا لهم بغير إذن الله فعبدوهم من أجل هذه العقيدة.

وعليه فحق المقدمة الثانية وهي الكبرى أن تكون هكذا: (وبعض الدعاء عبادة)، وهذا القياس لا ينتج: أن الاستغاثة مطلقاً عبادة؛ إذ سيكون القياس حينئذ هكذا:

الصغرى: الاستغاثة دعاء .

الكبرى: بعض الدعاء عبادة .

النتيجة: بعض الاستغاثة عبادة .

وهذه النتيجة مسلّمة، ولكنها لا تثبت أن استغاثة الإنسان بالإنسان بدون أن يعتقد فيه شيئاً من الإلوهية أو الربوبية عبادة له حتى تكون شركاً، وما يقوم به المسلمون من الاستغاثة بالنبي ﷺ أو بالأولياء لم يكن عن اعتقادهم بألوهيتهم أو ربوبيتهم فليس من العبادة في شيء .

الجواب بصياغة أخرى :

ويمكن أن نصيغ الجواب بعبارة أخرى فنقول:

إن الدعاء يمكن تصوره على قسمين:

القسم الأول: ما يكون فيه خضوع وخشوع ويتضمن التمجيد والشكر والتحميد وطلب غفران الذنوب والرحمة وما شاكل ذلك، وقد اصطلح عليه ابن تيمية وأتباعه بأنه دعاء العبادة، وهذا لا ريب في كونه عبادة، وعليه يحمل أن الدعاء مخ العبادة، وهذا لا يقوم به أحد من المسلمين تجاه أحد من الأنبياء والمرسلين أو الأولياء والصالحين .

القسم الثاني: دعاء المسألة وهو ما يتضمن سؤالاً لشيء وطلباً لحصوله كما لو قال أخ لأخيه: انصرني على عدوي بدون أن يعتقد فيه أنه قادر على الفعل باستقلاله، فهذا ليس من العبادة في شيء حتى

لو كان المطلوب أمراً خارقاً للعادة .

وما يقوم به المسلمون تجاه الأنبياء والأولياء والصالحين هو هذا النوع من الدعاء وليس القسم الأول، وهو يتصور على أنحاء:

النحو الأول: أن يدعو النبي أو الولي بقصد أن يقضي حاجته بنفسه مستقلاً عن الله تعالى، فهذا شرك بلا ريب، ولكنه شرك في الربوبية قبل أن يكون شركاً في العبادة؛ لأن الداعي بهذا القصد والاعتقاد قد اعتقد بأن في الكون مدبراً مستقلاً غير الله تعالى، ولكن لا أحد من المسلمين يعتقد بذلك في الأنبياء والأولياء ولا أحد منهم يفعله تجاه أحد منهم، بخلاف المشركين بالنسبة إلى أصنامهم وآلهتهم؛ فإنهم ـ كما مرّ ـ يعتقدون بشيء من ذلك فلذلك عبدوهم، ولهذا صرحوا بعبادتهم لهم فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] .

النحو الثاني: أن يدعو النبي ﷺ أو الولي بقصد أن يتوسل النبي ﷺ له عند الله تعالى فيقضي الله تعالى حاجته ببركة النبي ﷺ، كأن يقول: يا رسول الله اسأل الله في قضاء حاجتي .

وهذا ليس فيه شرك في الربوبية؛ لأن الداعي لم يعتقد بمدبر غير الله تعالى، ولا في العبادة؛ لأن هذا النحو من الدعاء ليس بعبادة كما مرّ .

النحو الثالث: أن يدعو النبي ﷺ بقصد أن يقضي حاجته؛ لأن الله تعالى أقدره على فعل ذلك، كأن يطلب من النبي ﷺ أن يشفع له عند الله تعالى باعتقاد أن الله تعالى أعطاه مقام الشفاعة وأذن له في فيها،

---

(١) سورة الزمر: ٣ .

أو يطلب منه أن يغنيه لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾(١) فنسب الله تعالى الإغناء إلى نفسه وإلى رسوله ﷺ، أو كمن يطلب من النبي عيسى عليه السلام أن يشفيه؛ لأن الله تعالى أعطاه هذه القدرة .

وهذا النحو ليس فيه شرك في الربوبية؛ لأن الداعي لم يعتقد بمدبر مستقل غير الله تعالى فلم يجعل لله نداً، بل اعتقد بأن القدرة التي عند النبي ﷺ هي من عند الله تعالى، وبيده الأمر كله، وهو قادر على ما يشاء فأعطى خاصة خلقه هذه القدرة الخارقة .

وليس فيه شرك في العبادة أيضاً؛ لأن هذا النحو من الدعاء خارج عن دائرة العبادة كما بيّناه سابقاً .

وما يقوم به المسلمون تجاه الأنبياء والأولياء والصالحين هو أحد النحوين الأخيرين ـ الثاني والثالث ـ، فلا يصح رميهم بالشرك .

اذا اتضح ذلك اتضح الجواب عن شبهات ابن تيمية وأتباعه في جميع ما ذكروه واستعرضوه من الآيات .

فإن النهي في الآية الأولى أعني: ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (لا يراد به مطلق الدعاء قطعاً بل دعاء خاصاً، وهو الدعاء المساوي لدعاء الله تعالى باعتقاد أن المدعو قادر مختار مساو لله في ذلك كما كانت اليهود والنصارى تفعل ذلك في بيعها وكنائسها، أو دعاء من نهى الله عن دعائه من الأصنام والأوثان التي هي أحجار وأشجار لا تعقل ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تسأل ولا تشفع، كما كان يفعله

(١) سورة التوبة: ٧٤ .

المشركون في الكعبة، أو دعاء الملائكة والجن الذين كانوا يعبدونهم ويعتقدون أن لهم تأثيراً في الكون مع الله بأنفسهم، أو يشفعون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم أو نحو ذلك مما لم يجعله الله لهم)[1] .

والذي يشهد على أن المراد المساواة في الدعاء مع الله تعالى كلمة (مع) في الآية فإنها (ظاهرة في المساواة، ومن يدعو النبي ﷺ ليدعو الله له ويشفع إليه في حاجته لم يدعه مع الله ولم يساوه، بل في الحقيقة دعا الله الذي أمر بطلب الدعاء من الغير وجعل له الشفاعة[2]، وليس المراد بالمعية مجرد المشاركة في الوجود وإلا لحرم دعاء غير الله في المساجد أو مطلقاً مع الله بأن يقول: يا الله اغفر لي ويا فلان اسقني ماء، وحينئذ فقول يا محمد ادع لي الله، أو اشفع لي عنده الذي هو في معنى ادعه لا يزيد عن قوله يا فلان اسقني ماء .

وبعبارة أخرى: معنى مع الله أن يكون دعاؤه في عرض دعاء الله لا في طوله، والأصنام لو فرض أن دعاءها ليس كذلك فالله نهى عن دعائها بكل حال؛ لأنها جماد، ولأن دعاءها خلاف على الله وتكذيب للرسل، ودعاء باقي المعبودات كعيسى والملائكة والجن هو مثل دعاء الله قطعاً فعيسى عليه السلام اتخذ شريكاً في الربوبية والملائكة والجن اعتقد أن لهم قدرة وتأثيراً مع الله كما مر)[3] .

---

(١) كشف الارتياب: ٢٢٧ .

(٢) كما يشير له قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ سورة النساء: ٦٤ .

(٣) كشف الارتياب: ٢٢٨ .

وأما الآية الثانية والثالثة أعني : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾، و﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾، فإما أن يراد من كلمة تدعون تعبدون، وإما أن يراد من الدعاء الدعاء الخاص الذي ذكرناه في الآية الأولى لا مطلق الدعاء، وعلى التقديرين لا تشمل الآيتان استغاثة المسلم بالنبي ﷺ أو بالولي، بل من الآية الأخيرة يستفاد أن الآيات: (دالة على أنهم كانوا يعتقدون أنهم قادرون على نصرهم بأنفسهم، ولذلك كانوا يدعونهم، ولم يكونوا يعتقدون بأنهم قادرون على نصرهم بدعائهم وشفاعتهم وإلا لم تكن الآيتان رداً عليهم، ولكان لهم أن يقولوا:

إنهم وإن لم يقدروا على نصرنا بأنفسهم فهم قادرون عليه بالتسبب بدعاء الله لنا الذي وعد إجابة الدعاء، ونحن لم نطلب منهم غير ذلك، وإنهم وإن كانوا عباداً أمثالنا فهم قادرون على أن يشفعوا لنا عند الله الذي جعل لهم الشفاعة بإذنه فيستأذنونه ويشفعون، هذا إن كانوا من الأنبياء أو الصلحاء)[1] .

وأما آية: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾، فالمراد من (دعوة الحق) إما التوحيد، وإما أن المدعو بحق هو الله تعالى، وأما ما يفعله المشركون من دعاء غير الله من حجر أو شجر أو غيرهما مما يعتقدون أن له تأثيراً مع الله أو شفاعة اضطرارية أو غير مردودة أو نحو ذلك لا يستجيبون لهم؛ لأن المؤثر الحقيقي هو الله تعالى، وأين هذا المعنى مما يقوم به المسلمون من طلب الدعاء من

---

(١) كشف الارتياب: ٢٢٧ بتصرف .

الصالحين الذين أمر الله بطلب الدعاء منهم ودلت الآيات والأخبار على حياتهم بعد الموت ؟!

وملخص الجواب: (أن معنى الدعاء في الآيات التي استدل بها الوهابيون ليس مطلق النداء، بل معناه النداء على وجه يكون مرادفاً للعبادة؛ لأن جميع هذه الآيات إنما نزلت في شأن عبدة الأصنام الذين كانوا يعتقدون بأنها آلهة صغيرة قد فوِّض إليها بعض شؤون الكون، ولها الاستقلال في التصرف، فمن الواضح أن كل دعاء ونداء لهذه الأصنام ـ سواء كانت آلهة كبيرة أو صغيرة ـ مع الاعتقاد بأنها مالكة الشفاعة والمغفرة، يعتبر شركاً وعبادة لها .

وأوضح دليل على أن عبدة الأصنام كانوا يدعون أصنامهم باعتقاد إلوهيتها هو قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾[1])[2] .

فاتضح من خلال ما تقدم أن هذه الآيات وغيرها مما يستدل بها ابن تيمية وأتباعه على كون الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والصالحين شركاً لا تدل على ذلك، بل هي أجنبية عن الاستغاثة ودعاء الصالحين الذي يقوم به عامة المسلمين .

---

(١) سورة هود: ١٠١ .

(٢) الوهابية في الميزان: ٢٩٨ .

المسألة الثالثة : طلب الشفاعة [1]

والمراد به أن يطلب المسلم من النبي ﷺ أو من أحد الأولياء أن يشفع له عند الله تعالى؛ لأنه أعطي مقام الشفاعة من قبل الله تعالى باعتقاد السائل، وأذن الله في ذلك، فيقول مثلاً: يا رسول الله اشفع لي عند ربك، أو يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله، وليس لأحد على الله قبول شفاعته، بل يكون ذلك بمنه ولطفه، ولا شفاعة إلا بإذنه ورضاه.

وقد منع منه ابن تيمية وأتباعه واعتبروه شركاً؛ لأنه طلب من المخلوق لفعل لا يقدر عليه إلا الله تعالى وأنه دعاء له فيكون عبادة !

ومن خلال ما تقدم في المسألة السابقة يظهر الجواب عن كلامهم في هذه المسألة؛ فإنها فرد منها؛ لأن طلب الشفاعة ما هو إلا طلب من الرسول ﷺ أن يدعو له الله تعالى ليغفر ذنوبه أو يستنقذه من النار، وهذا الفعل أعني الدعاء مما يقدر عليه النبي ﷺ سواء أكان في حال الحياة أم بعد الممات؛ أما في حال الحياة فالأمر واضح، وأما بعد الحياة الدنيا فلأنه ﷺ حي يرزق عند ربه يحس ويسمع كما تقدمت

---

(١) هذه المسألة إحدى أفراد المسألة السابقة ، وإنما أفردناها بالبحث لأنهم جعلوها عنواناً مستقلاً وأضافوا عليها أدلة أخرى .

الأحاديث في ذلك، فسؤاله الدعاء في مماته كسؤاله الدعاء في حياته، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[١] .

ولو فرض أن هذا الشيء مما لا يقدر عليه المخلوق، فالطلب منه لا يوجب الشرك؛ لأن السائل لم يسأله بما أنه قادر بنفسه مستقلاً عن الله تعالى، بل يسأله لأنه قادر بقدرة من الله تعالى، وقد تقدم أن مدار عبادة غير الله تعالى هو اعتقاد الداعي والسائل أن المدعو إله أو رب أو له القدرة على التصرف مستقلاً عن الله تعالى، ولم يقع من المسلم شيء من ذلك حال طلبه للشفاعة من الرسول ﷺ أو من الولي .

أدلة ابن تيمية وأتباعه :

والمسألة بعد ما بيناه تلحق بالواضحات إلا أن ابن تيمية وأتباعه قد استدلوا على دعواهم بآيات من القرآن الكريم ربما توقع البعض في الوهم والإشكال فلزم أن نتعرض لها وبيان المناقشة في استدلالهم بها، ويمكن تقسيم الآيات إلى طائفتين:

الطائفة الأولى:

وهي آيتان:

الآية الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٢] .

---

(١) سورة النساء: ٦٤ .

(٢) سورة الزمر: ٣ .

الآية الثانية: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1].

وأساس الاستدلال بهاتين الآيتين يبتني على دعوى أن شرك الكفار الذين بعث لهم الرسول ﷺ كان بعبادتهم لأصنامهم، وعبادتهم لهم كانت بطلبهم الشفاعة منهم ليقربوهم إلى الله تعالى؛ لأنهم لم يكونوا مشركين في توحيد الربوبية بمصطلحهم، وما يقوم به المسلمون بالنسبة إلى النبي ﷺ والأولياء هو نفس ما يقوم به المشركون بالنسبة إلى أصنامهم، فيدعونهم ليشفعوا لهم عند ربهم وهذه هي العبادة.

والجواب عن ذلك:

أولاً: إن عبادة المشركين لم تكن بنفس طلب الشفاعة من أصنامهم حتى يقال: إن نفس طلب الشفاعة هو عبادتهم لها والمسلمون هكذا يفعلون، وإنما كانوا يعبدونها بالسجود لها والإهلال بأسمائها لأجل أن يقربوهم إلى الله زلفى، فالعبادة غير طلب الشفاعة، والآيتان صريحتان في أن عبادتهم لهم كانت بغير التشفع؛ إذ أن العبادة في الآية الأولى جعلت علة للتقريب من الله تعالى (الشفاعة)، والعلة مغايرة للمعلول بالبداهة.

وفي الآية الثانية جعلت جملة ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾، والعطف يقتضي مغايرة المعطوف للمعطوف عليه.

---

(١) سورة يونس: ١٨.

وحاصل الجواب: أن المشركين كانوا يقومون بعملين: عبادة أصنامهم، وطلب الشفاعة منهم للزلفى من الله تعالى، فلا تدل الآيتان على أن طلب الشفاعة عبادة، فلا ربط للآيتين بدعواهم في ما يخص المسلمين.

ثانياً: إن المشركين كانوا يعتقدون في آلهتهم أنهم أرباب ولهم شيء من التصرف الربوبي، ويملكون مقام الشفاعة مستقلاً عن الله تعالى كما قدمنا ذلك، ولهذا كانوا يدعونهم ويعبدونهم من دون الله، فهم دعوهم بل عبدوهم مع الإعراض عن عبادة الله تعالى كما تصرح به الآية الشريفة: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ بخلاف ما يفعله المسلمون تجاه الأنبياء والأولياء؛ فإنهم لا يعبدونهم ولا يعتقدون فيهم أن لهم تصرفاً ربوبياً ولا أنهم يملكون مقام الشفاعة مستقلين عن الله تعالى، بل يعتقدون فيهم بأن ما عندهم فهو من الله تعالى ويشفعون بإذنه تعالى.

فلو فرض أن استشفاع المشركين بأصنامهم عبادة منهم لها لا يلزم منه أن استشفاع المسلمين بالنبي والأولياء والصالحين عبادة منهم لهم؛ لأن اعتقاد المشركين بأن شفاعة أصنامهم نافذة بلا ريب لملكهم لمقامها استقلالاً له تأثير في صدق عنوان العبادة، والمسلمون لا يعتقدون في النبي ﷺ والأولياء إلا أنهم يشفعون بإذن الله تعالى وأن الله تعالى أذن لهم في ذلك.

ثالثاً: (قوله: ما لا يضرهم ولا ينفعهم إشارة إلى أنهم عبدوا أحجاراً وأشجاراً هي من الجمادات، وطلبوا منها النصر والشفاعة ولم يجعل الله لها ذلك، فلا يقاس بها من جعله الله شافعاً وقادراً على الشفاعة،

ولا [يقاس] من تشفع به بمن تشفع بها .

ويجب ـ على قياس قولهم: (بمنع يا رسول الله إشفع لي، بل يقول اللهم شفعه فيَّ ، أو ارزقني شفاعته) ـ أن يمنعوا يا فلان ادعُ لي، بل يقول اللهم أجب دعاءه فيَّ، أو ارزقني دعاءه لي، مع اعترافهم بجوازه)[1] .

الطائفة الثانية:

وهي آيتان أيضاً:

الآية الأولى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[2] .

الآية الثانية: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾[3] .

ووجه الاستدلال: أن الآيتين ولاسيما الأولى تصرح باختصاص الشفاعة بالله سبحانه، فطلبها من غيره شرك .

والجواب عن ذلك: بأن المعنى ـ والله العالم ـ أن الله وحده هو مالك أمر الشفاعة فيعطيها من يشاء ويمنعها ممن يشاء، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وقد ثبت أنه أعطى الأنبياء والصالحين والملائكة صلاحية الشفاعة فيشفعون عنده من بعد إذنه، وليس المعنى أن الله تعالى وحده هو الذي يشفع، وغيره لا يشفع؛ لأنه تعالى لا يشفع عند

---

(١) كشف الارتياب: ٢١٢ .

(٢) سورة الزمر: ٤٣ـ٤٤ .

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥ .

أحد ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)]، ومعنى يشفع أن يكون ثانياً لغيره فيشفع عند غيره وهو محال عليه تعالى .

فالنسبة بين هاتين الآيتين كالنسبة بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[(٢)] .

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٣)]،

فالعزة له ومنه وحده لا شريك له، وهو يعطيها لرسوله وللمؤمنين، فتكون لهم من عنده، لا من عند أنفسهم وبذاتهم .

والحاصل: أن آيتي الشفاعة لا تدلان على أنه لا يجوز طلب الشفاعة ممن جعله الله تعالى شافعاً كما يزعم ابن تيمية وأتباعه، بل تدلان على أن ملك أمر الشفاعة لله وحده، ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، ولم يعطها الله تعالى للأصنام الذين لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، ولكن ثبت أنه أعطاها لأنبيائه والصالحين من عباده فيشفعون لمن ارتضى، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة يس: ٨٢ .

(٢) سورة يونس: ٦٥ .

(٣) سورة المنافقون: ٨ .

(٤) سورة الأنبياء: ٢٦ـ٢٨ .

المسألة الرابعة : البناء على القبور

من المسائل التي اهتم بها المسلمون قاطبة شيعة وسنة، شرقاً وغرباً هي مسألة البناء على القبور ولاسيما قبور شخصياتهم الدينية، فلا تجد بقعة من بقاع المسلمين إلا وفيها معلم من هذه المعالم بدون نكير لهذا الفعل من أحد، علمائهم وعوامهم، ولو قرأ القارئ رحلة ابن بطوطة لعرف صدق ما أقول؛ فإنه يسترسل في ذكر مقامات الأولياء والصالحين التي رآها وزارها في بلدن المسلمين، ومعنى ذلك أن هذه سيرة عملية عند المسلمين، بل إجماع عملي منهم؛ وهذا بنفسه دليل على الجواز؛ حيث إن المسلمين فيهم العلماء والمحققون والعبّاد والصالحون، ولهم اطلاع واسع على الأحاديث والأحكام وهي بمرأى ومسمع منهم فلم ينكر منهم أحد على هذه السيرة، وهذا يعني أنهم أخذوها كابراً عن كابر فتلقتها كل طائفة عن الطائفة التي سبقتها إلى أن يصل الأمر إلى زمان التابعين والصحابة وهم تلقوه من سيد المرسلين ﷺ .

وقد اعترف بهذه السيرة العملية الصنعاني في كتابه (تطهير الاعتقاد) وهو من أتباع ابن تيمية في هذه المسألة؛ فإنه قال:

(فإن قلت: هذا أمر عمّ البلاد، واجتمعت عليه سكان الأغوار

والأنجاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً ويمناً وشاماً وجنوباً وعدناً، بحيث لا تجد بلدة من بلاد الإسلام إلا وفيها قبور ومشاهد ... .

إلى أن قال: بل هذه مساجد المسلمين غالبها لا يخلو عن قبر أو قريب منه أو مشهد يقصده المصلون في أوقات الصلاة ...

ثم قال: ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت عليه علماء الإسلام الذين ثبتت لهم الوطأة في جميع جهات الدنيا)(١) .

قال العلامة البلاغي ﷺ:

(وقد بني على مراقد الأنبياء قبل ظهور الإسلام وبعده، فلم ينكره النبي ﷺ، ولا أحد من الصحابة والخلفاء، كالقباب المبنية على قبر دانيال عليه السلام في شوشتر، وهود وصالح ويونس وذي الكفل عليهم السلام، والأنبياء في بيت المقدس وما يليها، كالجبل الذي دفن فيه موسى عليه السلام، وبلد الخليل مدفن سيدنا إبراهيم عليه السلام .

بل الحجر المبني على قبر إسماعيل عليه السلام وأمه رضي الله عنها .

بل أول من بنى حجرة قبر النبي ﷺ باللبن ـ بعد أن كانت مقومة

---

(١) تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد: ٣٨ في نسخة المكتبة الشاملة، وص١٧ـ١٩ في طبع المنار بمصر كما في كشف الارتياب: ٢٨٩، ولا يخفى أن الصنعاني كان في مقام الرد على (إن قلت) ولا يهمنا جوابه؛ لأن محل الشاهد عندنا ثبوت السيرة العملية وهو اعترف بثبوتها إلا أنه اعتبرها بدعة من البدع كما هو ديدنهم، مع أن معنى ذلك هو اتهام عامة المسلمين من الأولين والآخرين بهذه البدعة، ومن أراد الجواب عن جوابه فليرجع لكتاب كشف الارتياب ص٢٨٩ وما بعدها ففيه الجواب الشافي والوافي .

بجريد النخل ـ عمر بن الخطاب، على ما نص عليه السمهودي في كتاب (الوفا)[١] ثم تناوب الخلفاء على تعميرها[٢].

فهذه السيرة العملية القطعية بل إجماع المسلمين قاطبة من أقوى الأدلة على جواز البناء على القبور.

ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما قاله العلامة البلاغي ﷺ:

(إعلم أن البناء على قبور الأنبياء والعباد المصطفين تعظيم لشعائر الله، وهو من تقوى القلوب، ومن السنن الحسنة.

حيث إنه احترام لصاحب القبر، وباعث على زيارته، وعلى عبادة الله ﷻ ـ بالصلاة والقراءة والذكر وغيرها ـ عنده، وملجأ للزائرين والغرباء والمساكين والتالين والمصلين، بل هو إعلاء لشأن الدين)[٣].

اذا اتضح هذا فلنعرج على أدلة من حرم البناء على القبور وأهمها الأحاديث التي استدلوا بها وهي أربعة أهمها اثنان:

الحديث الأول: حديث أبي الهياج:

الوارد في صحيح مسلم بسنده عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً الا طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته)[٤].

ووجه الاستدلال يبتني على حمل كلمة (سويته) على تسويته

---

(١) وفاء الوفاء ٢: ٤٨١.

(٢) الرد على الوهابية: ٧٠.

(٣) الرد على الوهابية: ٦٩.

(٤) صحيح مسلم ٣: ٦١-٦٢.

بالأرض فاستفادوا من ذلك: الأمر بهدم القبور .

والجواب عن هذا الاستدلال من ناحيتين: السند والدلالة:

أما السند ففيه أربعة من الرواة ممن تكلم فيهم بالطعن أو بالتدليس مما يعني عدم مقبولية الحديث بمقتضى الميزان الصحيح للتعامل مع الأحاديث[1]، ولكن بما أن الحديث وارد في صحيح مسلم وهو صحيح عندهم فسوف نغض الطرف عن جهة السند ونقتصر على

---

(١) لقد أفاض العلامة السيد محسن الأمين ﵀ في سند هذا الحديث في كتابه كشف الارتياب: ٢٩٣، فاستحسنا نقل بعضه للفائدة قال: (أما سنده ففيه: وكيع وهو ـ مع كثرة ما مدحوه به ـ قال في حقه أحمد بن حنبل: أنه أخطأ في خمسمائة حديث، حكاه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب ١١: ١٢٥ عن عبد الله بن أحمد عن أبيه .

وقال في آخر ترجمته ١١: ١٣٠: قال محمد بن نصر المروزي: كان يحدث بآخره من حفظه فيغير ألفاظ الحديث كأنه كان يحدث بالمعنى ولم يكن من أهل اللسان (انتهى) .

وفي سنده سفيان الثوري وهو ـ مع كثرة ما مدحوه به أيضاً ـ نقل في حقه ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤: ١١٥ عن ابن المبارك قال: حدث سفيان بحديث فجئته وهو يدلسه فلما رآني استحيى وقال نرويه عنك .

وذكر في ترجمة يحيى القطان ١١: ٢١٨: قال أبو بكر: سمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلس علي رجلاً ضعيفاً فما أمكنه ...

وفي سنده حبيب بن أبي ثابت ـ وهو مع توثيقهم له ـ قال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣: ١٧٩ قال ابن حبان: كان مدلساً، وقال العقيلي: غمزه ابن عون ...

وفي سنده أبو وائل وهو الأسدي شقيق بن سلمى الكوفي ...، كان منحرفاً عن علي ﵇ مبغضاً له وقد قال رسول الله ﷺ :(لعلي ﵇ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) .

جهة الدلالة فنقول[١]:

أولاً: ما أفاده العلامة الأمين من أن متن الحديث شاذ انفرد به أبو الهياج، بل قال السيوطي في شرح سنن النسائي[٢]: أنه ليس لأبي الهياج في الكتب إلا هذا الحديث الواحد[٣].

ثانياً: أن إرادة الهدم من كلمة (سويته) لا تساعده اللغة ولا العرف؛ ولا تستعمل فيه إلا بأن يقال: سويته بالأرض أو نحو ذلك؛ فإن التسوية بين الشيئين المتغايرين لا بد فيها من أن يذكر الشيئان اللذان تراد مساواتهما.

ويؤيد هذا الكلام: أن التسوية بالأرض ليست من السنة بالاتفاق؛ للاتفاق على استحباب رفع القبر عن الأرض في الجملة.

ثالثاً: بعد الفراغ من عدم إرادة الهدم من لفظ التسوية فالمراد هو رفع سنام القبر؛ لأن في الحديث لفظين: (مشرفاً) و (سويته)، ويحتمل في كلمة (مشرف) احتمالان:

أولهما: أن يراد منها العالي بدون تسنيم.

وثانيهما: أن يراد به التسنيم؛ لأن التسنيم نوع من العلو أو معنى من معانيه؛ فقد قال في القاموس: الشَرَف ـ محركةً ـ العلو، ومن البعير

---

(١) استفدنا الجواب الدلالي من العلامتين الكبيرين: السيد محسن الأمين في كتابه كشف الارتياب: ٢٩٤ـ٢٩٥، والشيخ البلاغي في كتابه الرد على الوهابية: ٧٢ـ٧٥ بتصرف في قسم وتغيير في الترتيب، والإبقاء على عين اللفظ في بعض آخر.

(٢) شرح سنن النسائي: ٢٨٦.

(٣) كشف الارتياب: ٢٩٤.

سنامه .

ولكن بما أن في الحديث كلمة (سويته)، والتسوية معناها التعديل كما في المصباح المنير: استوى المكان اعتدل، وسويته عدلته، وفي القاموس: (سوّاه) جعله سوياً، فهي تشكل قرينة على أن المراد من المشرف في الحديث هو المعنى الثاني لا الأول، أي المشرف المقابل للتسوية وهو المسنم؛ لأن مطلق العلو لا يقابل التسوية؛ لأنه يمكن أن يكون عالياً مستوياً .

والحاصل: أنه يكون معنى (المشرف) في الحديث هو: القبر ذو السنام، ومعنى تسويته: هدم سنامه .

ويحتمل أن يكون المراد: القبور التي يجعل لها شرف من جوانب سطحها، والمراد من تسويته أن تهدم شرفه ويجعل مسطحاً أجم، كما في حديث ابن عباس: أمرنا أن نبني المدائن شرفاً والمساجد جماً[1] .

وعلى كلا التقديرين لا تدل هذه الرواية على عدم جواز البناء على القبور أو وجوب هدمها، كما لا ربط لها بحرمة بناءِ السقوف والقباب ووجوب هدمها .

(وما ذكرناه في معنى الحديث هو الذي فهمه منه العلماء وأئمة الحديث .

روى مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز بسنده عن ثمامة قال:

---

(١) كنز العمال ٨: ٣١٤، ح ٢٣٠٧٦ .
والجُمّ ـ جمع أَجَمَ ـ وهو البنيان الذي لا شُرَفَ له، انظر: الصحاح ٥: ١٨٩١ .

كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها، ثم روى حديث أبي الهياج.

ومن الواضح أن قوله: فأمر فضالة بقبره فسوّي أي سطح ولم يجعله مسنماً، وكذا قوله سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها أي تسطيحها، وليس المراد: أنه أمر به فهدم؛ لأنه لم يكن مبنياً، ولا المراد أنه أمر به فسوّي مع الأرض؛ لأن ذلك خلاف السنة؛ للاتفاق على استحباب تعليتها عن الأرض في الجملة كما عرفت، فتعيّن أن يراد به التسطيح فكذا خبر أبي الهياج الذي عقب به مسلم وساقه مع هذا الحديث في مساق واحد، وذلك دليل على أنه حمل قوله: ولا قبراً مشرفاً إلا سويته على معنى ولا قبراً مسنماً إلا سطحته.

وقال النووي في الشرح: قوله: (يأمر بتسويتها)، وفي الرواية الأخرى (ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) فيه: أن السنة أن القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً ولا يسنم، بل يرفع نحو شبر ويسطح وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه (انتهى).

فحمل التسوية على التسطيح وعدم رفع القبر كثيراً كما ترى)[1].

وقال أيضاً: (وقال القسطلاني: في إرشاد الساري شرح صحيح البخاري[2]: روى أبو داود بإسناد الصحيح أن القاسم ابن محمد بن أبي بكر قال دخلت على عائشة فقلت لها اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ

---

(١) كشف الارتياب: ٢٩٤ـ٢٩٥.

(٢) ٢: ٤٦٨.

صاحبيه فكشفت عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء، أي لا مرتفعة ولا لاصقة بالأرض كما بينه في آخر الحديث (انتهى) .

ثم قال القسطلاني: ولا يؤثر في أفضلية التسطيح كونه صار شعار الروافض؛ لأن السنة لا تترك بموافقة أهل البدع فيها ولا يخالف ذلك قول علي رضي الله عنه: أمرني رسول الله ﷺأن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته؛ لأنه لم يرد تسويته بالأرض وإنما أراد تسطيحه؛ جمعاً بين الأخبار، نقله في المجموع عن الأصحاب (انتهى) .

وقال الترمذي: (باب ما جاء في تسوية القبور)، ولم يقل في هدم القبور، ثم أورد حديث أبي الهياج، وظاهر أنه لم يحمل التسوية فيه إلا على التسطيح؛ لأن ذلك هو معناها لغة وعرفاً، ولا ربط له بعدم جواز البناء عليها)[1] .

رابعاً: لو تنزلنا وقلنا بدلالة الرواية على الأمر بالهدم (فإنه من الواضح أن المأمور به في الرواية لم يكن هدم جميع قبور العالم، بل الحديث وارد في بعث خاص وواقعة مخصوصة، فلعل البعث قد كان إلى قبور المشركين لطمس آثار الجاهلية ـ كما يؤيده ذكر الصنم ـ أو إلى غيرها مما لا نعرف وجه مصلحتها، فكيف يتمسك بمثل هذه الرواية لقبور الأنبياء والأولياء ؟!

قال بعض علماء الشيعة من المعاصرين: إن المقصود من تلك القبور، التي أمر علي عليه السلام بتسويتها، ليست هي إلا تلك القبور التي

(١) كشف الارتياب: ٢٩٦ .

كانت تتخذ قبلة عند بعض أهل الملل الباطلة، وتقام عليها صور الموتى وتماثيلهم، فيعبدونها من دون الله .

إلى أن قال: وليت شعري لو كان المقصود من القبور ـ التي أمر علي عليه السلام بتسويتها ـ هي عامة القبور على الإطلاق، فأين كان عليه السلام ـ وهو الحاكم المطلق يومئذ ـ عن قبور الأنبياء التي كانت مشيدة على عهده ؟! ولا تزال مشيدة إلى اليوم في فلسطين وسورية والعراق وإيران، ولو شاء تسويتها لقضى عليها بأقصر وقت . فهل ترى أن علياً عليه السلام يأمر أبا الهياج بالحق وهو يروغ عنه فلا يفعله ؟! انتهى ما أردنا نقله منه)[1] .

ونضيف بأن عمر لما دخل بيت المقدس لم ينقل عنه أنه هدم أو أمر بهدم قبور الأنبياء عليهم السلام الموجودة هناك وكانت في غرف مبنية كقبر النبي إبراهيم عليه السلام وبنيه عليهم السلام ، وهذا يؤيد أنه لم يفهم الصحابة من هذا الحديث وأمثاله أنه أمر بالهدم .

الحديث الثاني : حديث جابر :

ورد في صحيح مسلم عن جابر قال: (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[2] .

ورواه غيره أيضاً بطرق متعددة وألفاظ مختلفة كما ستأتي الإشارة .

ووجه الاستدلال: أن الرسول ﷺ نهى عن البناء على القبور والنهي يفيد التحريم .

(١) الرد على الوهابية للبلاغي: ٧٢ـ٧٥ .

(٢) صحيح مسلم ٣: ٦٢ .

مناقشة الاستدلال بالحديث الثاني :

وهذا الحديث كسابقة محل إشكال من جهتي السند والدلالة، أما السند ففي رواته غير واحد ممن ضعف أو رمي بالتدليس فلا يعتمد على رواياتهم، ولكنا نقصر الكلام حول الدلالة؛ لأن الحديث مروي في صحيح مسلم وهو معتمد عندهم، ولا يخلو الاطلاع على رواة الحديث من فائدة؛ لأنه يعرفنا على قيمة صحاح القوم فلهذا ذكرنا في الهامش بعض ذلك[1] ونقول عن الدلالة:

---

(١) للفائدة نذكر مختصر ما ذكره العلامة السيد الأمين ﵀ حول سند الحديث فإن في طرقه ضعافاً ولكن لا يخلو أحد طرقه من أحد هؤلاء الثلاثة:

١- حفص بن غياث: وهو وإن وثقوه لكنهم قدحوا في حفظه وقالوا إنه مدلس، ففي تهذيب التهذيب لابن حجر: (..وذكر الأشرم عن أحمد بن حنبل أن حفصاً كان يدلس وقال ابن سعد كان ثقة مأموناً كثير الحديث يدلس!!).

٢- ابن جريج: وإن مدحوه فقد قدحوا في روايته وحفظه وقالوا إنه مدلس، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب في حقه: (... قال الدارقطني تجنب تدليس ابن جريج؛ فإنه قبيح التدليس، لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح مثل إبراهيم ابن يحيى، وموسى بن عبيدة وغيرهما، وقال ابن حبان كان يدلس) .

ومعنى قوله: (إلا فيما سمع من مجروح) أنه يترك ذكر المجروح فيخيل لآخذ الحديث أنه صحيح لعدم ذكره للمجروح وهو في الواقع ضعيف .

٣- أبو الزبير: قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: كان أيوب يقول: حدثنا أبو الزبير، وأبو الزبير أبو الزبير !

قلت لأبي: يضعفه ؟ قال: نعم .

وقال نعيم بن حماد: سمعت ابن عيينة يقول: حدثنا أبو الزبير، وهو أبو الزبير، أي كأنه يضعفه .

يرد على الاستدلال بهذا الحديث عدّة إشكالات:

الإشكال الأول : أن هذا الحديث يرجع إلى راوٍ واحد عن الرسول ﷺ وهو جابر، بل اتفقت روايات مسلم والنسائي والترمذي في ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر، وأكثر الطرق اتفقت في أبي الزبير عن جابر، ومع وحدة الحديث إلا أن المتن مضطرب جداً، وهذا الاضطراب يكشف عن عدم الضبط والدقة عند رواته، والضبط شرط في الراوي، فلا يطمئن بهذا الحديث فلا يعتمد عليه .

ووجه الاضطراب: أن رواية مسلم المتقدمة اشتمل النهي على ثلاثة أمور: التجصيص، والقعود، والبناء .

وله رواية أخرى لم تشتمل إلا على التقصيص وهو بمعنى التجصيص، وكذلك رواية ابن ماجة بلفظ التجصيص، ولابن ماجة رواية أخرى لم تشتمل إلا على الكتابة .

وقال هشام بن عمار عن سويد ابن عبد العزيز قال لي شعبة: تأخذ عن أبي الزبير وهو لا يحسن أن يصلي!

وقال نعيم بن حماد : سمعت هشيماً يقول: سمعت من أبي الزبير فأخذ شعبة كتابي فمزقه .

قال شعبة: لم يكن في الدنيا أحب إلي من رجل يقدم فأسأله عن أبي الزبير فقدمت مكة فسمعت منه، فبينا أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة فرد عليه فافترى عليه، فقلت له يا أبا الزبير تفتري على رجل مسلم؟! قال: إنه أغضبني، قلت: ومن يغضبك تفتري عليه ؟! لا رويت عنك شيئاً .

وقال محمد بن جعفر المدائني عن ورقاء: قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبي الزبير ؟ قال رأيته: يزن ويسترجح في الميزان .

وفي رواية الترمذي أضاف على الأمور الثلاثة: أن توطأ .

واقتصر بعض طرق أحمد في مسنده على اثنين: التجصيص والبناء .

ثم إنه تارة عبّر بالجلوس عليها وتارة بالقعود[1] .

فمع هذا الاضطراب في المتن مع وحدة الراوي ومن يروي عنه كيف يطمئن الفقيه بالصورة الحقيقية الواردة عن الرسول ﷺ حتى يفتي على طبقها ؟!

الإشكال الثاني: أنه على فرض صحة الحديث وغض النظر عن اضطراب نصه فغاية ما يدل عليه هو صدور النهي عن البناء على القبور، ولكن النهي على قسمين: نهي تحريمي، ونهي تنزيهي ـ أي كراهة فقط ـ، وكثرة استعمال النهي في الكراهة، وعمل المسلمين على خلافه، وفهم العلماء من هذا الحديث الكراهة يضعف إرادة الحرمة من هذا النهي .

فالترمذي ذكر هذا الحديث تحت عنوان: (باب ما جاء في **كراهية تجصيص القبور** والكتابة عليها) .

وفي عون المعبود شرح سنن أبي داود: (في هذا الحديث كراهية تجصيص القبور وكراهية **القعود عليها والبناء عليها**)[2] .

---

(١) من مصادر الحديث: مسند أحمد ٣ : ٣٩٩، سنن الترمذي ٢ : ٢٥٨، سنن ابن ماجة ١ : ٤٩٨، سنن ابن ماجة ١ : ٤٩٨، سنن النسائي ٤ : ٨٧ـ٨٨، سنن أبي داود ٢ : ٨٥ .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٩ : ٣٣ للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي .

وفي فتح العزيز: (... وإنما يرفع نعش القبر ليعرف فيزاد ويحترم، واستثنى في التتمة ما إذا مات مسلم في بلاد الكفر قال: لا يرفع قبره ويخفى كيلا يتعرض له الكفار إذا خرج المسلمون منها، **ويكره تجصيص القبر والكتابة والبناء عليه**؛ لما روي عن النبي ﷺ: (أنه نهي عن تجصيص القبر وأن يبنى عليه وأن يكتب وأن يوطأ)، ولو بني عليه هدم إن كانت المقبرة مسبلة[1]، وإن كان القبر في ملكه فلا .

(وأما قوله) فلا يطين فليس له ذكر في أكثر كتب الأصحاب، وإنما ذكره المصنف وإمام الحرمين كأنهما ألحقا التطيين بالتجصيص، لكن لا يبعد الفرق بينهما؛ فإن التجصيص زينة دون التطيين، أو الزينة في التجصيص أكثر، وذلك لا يناسب حال الميت، وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه عن الشافعي: أنه لا بأس بالتطيين وروى مثله عن أحمد)[2] .

وفي مغني المحتاج: (ويكره تجصيص القبر) أي تبييضه بالجص وهو من الجبس، البارزي، وهو ظاهر وقيل الجير، والمراد هنا هما أو أحدهما .

(والبناء) عليه كقبة أو بيت؛ للنهي عنهما في صحيح مسلم . وخرج بتجصيصه تطيينه؛ فإنه لا بأس به كما نص عليه .

وقال في المجموع: إنه الصحيح وإن خالف الإمام والغزالي في ذلك

---

(١) وقف للمسلمين .

(٢) فتح العزيز شرح الوجيز وهو الشرح الكبير للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ٥: ٢٢٣-٢٢٧ .

فجعلاه كالتجصيص)[١] .

وفي شرح مسلم للنووي: (وفي هذا الحديث **كراهة تجصيص القبر، والبناء عليه**، وتحريم القعود، والمراد بالقعود الجلوس عليه، هذا مذهب الشافعي وجمهور العلماء، وقال مالك في الموطأ: المراد بالقعود الجلوس .

قال أصحابنا: تجصيص القبر مكروه، والقعود عليه حرام وكذا الاستناد إليه والاتكاء عليه، **وأما البناء عليه فإن كان في ملك الباني فمكروه**، وإن كان في مقبرة مسبلة فحرام نص عليه الشافعي والأصحاب)[٢] .

وفي فقه السنة للشيخ سيد سابق: (النهي عن تجصيص القبر والكتابة عليه عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبني عليه . رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وصححه .

ولفظه: (نهى أن تجصص القبور ...

والتجصيص معناه الطلاء بالجص، وهو الجير المعروف، **وقد حمل الجمهور النهي على الكراهة**، وحمله ابن حزم على التحريم .

وقيل: الحكمة في ذلك إن القبر للبلى لا للبقاء، وإن تجصيصه من زينة الدنيا، ولا حاجة للميت إليها .

وذكر بعضهم: أن الحكمة في النهي عن تجصيص القبور كون

---

(١) مغني المحتاج لمحمد بن أحمد الشربيني: ١: ٣٦٤ .

(٢) شرح مسلم للنووي ٧: ٢٧ .

الجص أحرق بالنار، ويؤيده ما جاء عن زيد بن أرقم أنه قال لمن أراد أن يبني قبر ابنه ويجصصه: جفوت ولغوت، لا يقربه شيء مسته النار .

ولا بأس بتطيين القبر، قال الترمذي: وقد رخص بعض أهل العلم ـ منهم الحسن البصري ـ في تطيين القبور .

وقال الشافعي: لا بأس به أن يطين القبر .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه: أن النبي ﷺ رفع قبره من الأرض شبراً وطيّن بطين أحمر من العرصة وجعل عليه الحصباء . رواه أبو بكر النجاد وسكت الحافظ عليه في التلخيص)[1] .

الإشكال الثالث: ما أفاده السيد محسن الأمين ﵀: (إن هذه الأحاديث ـ مع الغض عن ضعف أسانيدها ودلالتها واضطراب متنها ـ منصرفة إلى غير ما يكون تعميره وتشييده والبناء فوقه من تعظيم شعائر اللّه وحرماته؛ لكون صاحبه نبياً أو ولياً أو صالحاً؛ ولكونها بنيت لمصالح في الدين مهمة:

منها: أن تكون علامة ومناراً للقبر الذي ندب الشرع إلى زيارته كما يأتي في فصل الزيارة وحفظاً له عن الاندراس، وقد علم رسول اللّه ﷺ قبر عثمان بن مظعون بصخرة وضعها عليه ...

فإذا ثبت استحباب ذلك فكلما كان أبلغ في حفظه وعدم اندراسه كبناء القبة عليه كان أولى بالاستحباب؛ فإن هذا بمنزلة العلة المنصوصة، ومنه يعلم أن القبور يمتاز بعضها عن بعض بامتياز أصحابها في الدين، وعدم بناء القباب ونحوها في ذلك العصر؛ للعسر

---

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق ١: ٥٥٤-٥٥٥ .

الحاصل للمسلمين واحتياجهم إلى صرف الأموال ـ إن وجدت ـ فيما هو أهم، من الجهاد وإعاشة المسلمين، فلا يقاس به العصر المتأخر عن ذلك الذي اتسعت فيه أحوال المسلمين .

وكما كان النبي ﷺ وأصحابه يقنعون من العيش بالبلغة وبيوتهم لاطئة مبنية باللبن وسعف النخل، ومسجده المعظم عريش كعريش موسى، وخطبته في الجمعة والعيد أولاً إلى جذع، ثم عمل له منبر ولم يكن المنبر يمتاز كثيراً عن الجذع بغير الهيئة، فلما قويت شوكة الإسلام، واتسعت حال المسلمين، واستولوا على كنوز كسرى وقيصر، تغيرت حالهم في اللباس والمأكل والمشرب والمسكن ووسعوا المسجدين النبوي والمكي، وأجادوا بناءهما وبناء الحجرة الشريفة وسائر المساجد، ولم يكونوا بشيء من ذلك عاصين ولا مبدعين، كذلك بنوا على قبور عظماء الدين؛ تعظيماً لشأنهم، كما فهموه من أحكام دينهم تصريحاً وتلويحاً .

ولو سلمت الكراهة في سائر القبور لا تسلم في قبور الأنبياء وعظماء الشهداء كحمزة سيد الشهداء ...

ومنها : أن تكون حفظاً للقبر الذي ثبتت حرمته في الشرع عن دخول الدواب والكلاب ووقوع القاذورات عليه .

ومنها : استظلال الزائرين بها من الحر والقر عند إرادة الزيارة، والصلاة بجانبها التي ثبت رجحانها بشرف المكان والدعاء عندها، وقراءة القرآن الذي ثبت أنه أرجى للإجابة وأوفر في الثواب ببركتها وبركة من حل فيها، والتدريس فيها، وإلقاء المواعظ، وغير ذلك من الفوائد، فهي بهذا الاعتبار داخلة في المواضع المعدة للطاعات

كالمساجد والمدارس والرباطات .

ومنها : أن في بنائها وتشييدها تعظيماً لشعائر الإسلام)[١] .

الإشكال الرابع: ما أفاده السيد الأمين ﵀ أيضاً : إنها مهجورة متروكة لم يعمل بها أحد من المسلمين قبل الوهابية ومن ضارعهم من عهد الصحابة إلى يومنا هذا ، وما هذا حاله من الأحاديث لا يعمل به ولا يعول عليه ولو فرض صحة سنده ...

أما عدم العمل بها فمن وجوه:

أحدها : أن الكتابة المشتمل عليها بعضها لم يعمل بها أحد[٢] .

ثانيها : أن قبور الأنبياء التي حول بيت المقدس كقبر داود ﵇ في القدس وقبور إبراهيم وبنيه إسحاق ويعقوب ويوسف الذي نقله موسى من مصر إلى بيت المقدس عليهم السلام في بلد الخليل، كلها مبنية مشيدة قد بني عليها بالحجارة العادية العظيمة من قبل الإسلام وبقي

---

(١) كشف الارتياب: ٣٠٤ .

(٢) في سنن ابن ماجة ١ : ٤٩٨ : (...عن جابر، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يكتب على القبر شيء . قال السندي: قال الحاكم بعد تخريج هذا الحديث في المستدرك: الإسناد صحيح، وليس العمل عليه؛ فإن أئمة المسلمين من الشرق إلى الغرب يكتبون على قبورهم، وهو شيء أخذه الخلف عن السلف .

وتعقبه الذهبي في مختصره بأنه محدث، ولم يبلغهم النهي) .

ولا يخفى أن تعقيب الذهبي بارد جداً ولا ينبغي صدوره من أحد من أهل العلم؛ إذ كيف لم يبلغ النهي أئمة المسلمين من الشرق والغرب وهو بين أيديهم وبمرأى منهم ؟! ودعوى الحدوث في السيرة واضح البطلان لمن راجع ما كتب على قبور الأولين .

ذلك بعد الفتح الإسلامي إلى اليوم ...

ولا شك أن عمر لما فتح بيت المقدس رأى ذلك البناء ومع ذلك لم يهدمه ...

ولم يسمع عن أحد من العلماء والصلحاء وأهل الدين وغيرهم قبل الوهابية أنه أنكر ذلك أو أمر بهدمه أو حرّمه أو فاه في ذلك ببنت شفة على كثرة ما يرد من الزوار والمترددين من جميع أقطار المعمورة .

وبذلك يظهر بطلان زعم الوهابية أن البناء على القبور حدث بعد عصر التابعين)[1] .

الإشكال الخامس: ما أفاده العلامة البلاغي بقوله: (والظاهر من البناء عليها هو البناء على حفرتها بالحجارة، لا بناء السقف على حجرتها .

ويحتمل أن يكون المراد بناء الخيمة والفسطاط لإقامة الحداد وتعظيم المصيبة، كما قيل: إنه من أعمال الجاهلية التي لا غاية لها إلا إظهار الجزع من قضاء الله .

فلا نهي في الحديث عن بناء السقف لوقاية المؤمنين الزائرين، المتقربين إلى الله بزيارة القبور، والدعاء للأموات، وذكر الله، وتلاوة القرآن، حينما يتذكرون الآخرة، ويعملون لها عند زيارة القبور، ولإعانة هؤلاء على الخير والبر)[2] .

وبهذه الأجوبة يتضح الجواب عن بقية الأحاديث التي استندوا إليها

---

(١) كشف الارتياب: ٣٠٦ .

(٢) دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى: ٢١ .

أو يمكن الاستناد إليها؛ فإنها لا تخلو من ضعف في سندها، وأما دلالتها فهي مثل هذا الحديث.

كما أنه لا يخفى أن النبي ﷺ قد دفن في بيته وهو مبني حينئذ، ثم بني جدار يفصل بين القبور وبين حجرة عائشة على ما نقلوا، ثم بقي إلى ما هو عليه اليوم من البناء المشيد حوله مزيناً بالقبة الخضراء التي تناطح السحاب، ولا شك ولا ريب أنها لم تكن موجودة من الأول بل استحدثت بعد عصره ﷺ، كما أن البناء الحالي لم يكن هو البناء في زمنه ﷺ؛ إذ من نافلة القول أن نقول: احتيج إلى تجديد بنائه في طول هذه السنين.

فلو كان البناء حراماً لكان من حيث المبدأ والمنتهى، فكان ينبغي أن لا يدفن النبي ﷺ في مكان مبني.

وعلى فرض وجود الفرق بين المبدأ والمنتهى، بمعنى يجوز أن يدفن في مكان مبني ولا يجوز البناء، يلزم أن لا يبنى بعد أن يندرس، ولا يضاف بناء جديد وقبة مشيدة؛ لأنها لم تكن موجودة حين دفنه ﷺ قطعاً.

المسألة الخامسة : بناء المساجد بجوار المراقد المقدسة

جرت سيرة المسلمين كلهم ـ شيعة وسنة ـ على أن تكون لهم مساجد بجوار قبور أوليائهم وصالحيهم، أو يصلون لله تعالى بجنب تلك القبور ويدعون الله بجوارها؛ طلباً لشرف البقعة التي تشرفت بالجسد الشريف بدون أن توقف تلك البقعة مسجداً، وقد تقدم في المسألة السابقة بيان السيرة المتبعة للمسلمين .

ومن هذه الجهة حرّم ابن تيمية وأتباعه بناء المساجد عند القبور وحرموا الصلاة عندها، وأمروا بهدمها إن وجدت، وكان العنوان المتخذ في كلماتهم: (بناء المساجد على القبور)، واستدلوا على ذلك بأحاديث سيأتي التعرض لها .

وبما أن العنوان المحرر في كلماتهم موهماً بحيث كان العنوان بناء المساجد على القبور وحرموا حتى بناء المساجد بجانبها والصلاة بجوارها وهو خلط بيّن كان علينا لإيضاح الأمر أن نطرح صوراً لهذه المسألة:

الصورة الأولى: بناء المسجد على نفس القبر، بحيث تكون أرض القبر هي المسجد وحدها، أو هي مع ما بجانبها .

الصورة الثانية: بناء المسجد بجانب القبر، بحيث يكون القبر

خارجاً عن حريم المسجد ملاصقاً له، سواء أوجد فاصل بين القبر والمسجد من جدار ونحوه أم لم يوجد بحيث يظهر للرائي أن القبر في المسجد .

الصورة الثالثة: أن يبنى حول القبر بناء كبير أو صغير بدون أن يوقف المكان مسجداً ولكن يصلى في ذلك المكان لله تعالى مستقبلاً المصلي للقبلة الشريفة، كما أنه يزار صاحب القبر من هناك ويقرأ القرآن عنده ويدعى لله تعالى فيه .

الصورة الرابعة: أن يدفن الميت في المسجد، بحيث يتخذ المكان مسجداً بالوقف الشرعي ثم يدفن الميت فيه .

أما الصورة الرابعة فالمعروف عند فقهاء الإمامية عدم جواز الدفن لمخالفته لجهة الوقف، فلا داعي لإطالة الكلام فيها بالاستدلال ونقل الأقوال ونقتصر على عبارة الشهيد الأول فإنه قال في كتابه الذكرى:

(الثاني عشر: لا يجوز الدفن في المساجد، لما فيه من شغله بما لم يوضع له . ودفن فاطمة عليها السلام في الروضة إن صح فهو من خصوصياتها بما تقدم من نص النبي صلى الله عليه وآله، وقد روى البزنطي قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قبر فاطمة، فقال: (دفنت في بيتها، فلما زادت بنو أمية في المسجد صارت في المسجد))[1].

وأما الصورة الثالثة فتدخل في المسألة السابقة بل هي عينها وإن اعتبروها من جملة فروع هذه المسألة؛ لأنهم لما رأوا المسلمين يصلون في هذه الأماكن ظنوا بأنها مساجد بنيت على القبور أو عندها ولكنه

(١) ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة ٢: ١٣٢ .

غير صحيح، وتقدم الكلام فيها وبيان جوازها .

فيقع البحث في الصورتين الأولى والثانية:

أما الصورة الأولى فهي الظاهرة من عنوانهم للمسألة حيث عبروا بهذا التعبير: (لا يجوز بناء المساجد على القبور)، وهي تتصور بنحوين:

النحو الأول: أن يبنى المسجد على القبر نفسه فيتخذ القبر مسجداً .

النحو الثاني: أن يبنى المسجد على القبر وما زاد عليه من الأرض المجاورة الخالية من القبور .

أما النحو الأول فلا تجد المسلمين يجعلون نفس قبر الولي مسجداً بحيث تتخذ بقعته مسجداً فيبنون فوقه ويصلى فيه، ولو اقتصرنا على ظاهر الأدلة الآتية التي استدلوا بها على المنع لكان هذا النحو من هذه الصورة، وبالتالي ما أراده ابن تيمية من التشنيع على الشيعة وغيرهم، والقول بحرمة الصورة الثانية الآتي الكلام فيها؛ لأدلة دلّت على المنع من هذا النحو من الصورة الأولى في غير محله، ولا يصلح كلامهم رداً على ما يفعله المسلمون كما سيظهر لك من الأدلة ومناقشتها .

وأما النحو الثاني من الصورة الأولى فما زاد عن موضع القبر يدخل في الصورة الثانية الآتية، وأما نفس القبر فيأتي فيه الكلام المتقدم .

أما الصورة الثانية أعني بناء المسجد بجانب القبر، بحيث يكون القبر خارجاً عن حريم المسجد ملاصقاً له، فهو المتعارف عند المسلمين والذي جرت عليه سيرتهم، ولا منشأ للقول بحرمته؛ إذ كما يوقف المسجد في أي مكان من الأرض يوقف في هذا المكان، وادعى ابن

تيمية وأتباعه حرمته واستدلوا على ذلك بأدلة أجنبية عن هذه الصورة كما سيأتي .

أدلة ابن تيمية وأتباعه لتحريم بناء المساجد على القبور وجوارها :

إذا اتضحت هذه الصور فلنذكر أدلتهم في التحريم وهي روايات منها :

الرواية الأولى: عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجداً) .

قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً[1] .

وأضاف أحمد بعد قوله: (مساجد): (تقول عائشة: يحذرهم مثل الذي صنعوا)[2] .

الرواية الثانية: (... ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك)[3].

الرواية الثالثة: عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك للنبي ﷺ فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه

---

(١) صحيح البخاري ٢ : ٩٠ .

(٢) مسند أحمد ٦ : ٣٤ .

(٣) صحيح مسلم ٢ : ٦٨ .

تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة[١] .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي في هذا المعنى، وقد استدل بها ابن تيمية ومن تبعه على حرمة بناء المساجد على القبور، وطبقوها على بناء المساجد بجوارها .

والجواب عن هذا الاستدلال بأمور:

الأمر الأول: أنا لو اقتصرنا على حرفية النص لكان النص ظاهراً في النحو الأول من الصورة الأولى التي تقدم الكلام فيها، أعني بناء المسجد على نفس القبر، وقلنا: بأنه لا أحد من المسلمين يبني مسجداً على نفس قبر الولي ليتخذ بقعته مسجداً له .

وغاية ما يستفاد من هذا المعنى كراهة الصلاة على القبور، واللعن لبيان شدة الكراهة كما استفيد ذلك في غير مقام .

الأمر الثاني: أنا إذا غضضنا النظر عن الأمر الأول، وأردنا أن نعرف المراد من هذه الأحاديث، فإن من اللازم أن نلاحظ ما يصنعه اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم حتى نعرف المنهي عنه حقيقة؛ لأن اللعن منصب على اليهود لكونهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وقالت عائشة على ما في رواية أحمد: (يحذرهم مثل الذي صنعوا)، والذي كان يصنعه اليهود والنصارى هو أمور ثلاثة أو أحدها:

١ـ إنهم اتخذوا قبور الأنبياء قبلة لهم في الصلاة، بحيث يتوجهون إليها من دون التوجه إلى القبلة الواجب عليهم الاتجاه إليها .

٢ـ إنهم كانوا يعبدون أنبيائهم بجوار قبورهم، أو يعبدون الصور

---

(١) صحيح البخاري ١ : ١١٠ .

التي كانوا يعلقونها عندها، إما من دون الله، أو مع اتخاذهم لهم شركاء مع الله تعالى .

فإذا كان هذا هو الذي يصنعه اليهود والنصارى مع قبور أنبيائهم فهو الذي نهى النبي ﷺ أمته عن أن يقوموا بمثله .

وهذا المعنى لا يقوم به أحد من المسلمين إزاء قبر النبي ﷺ أو بقية قبور الأولياء والصالحين؛ فإن الزائرين لا يتخذون تلك القبور قبلة تصرفهم عن الكعبة، ولا يعبدونها ولا يشركونها مع الله في العبادة، بل غرضهم من بناء المساجد بجوارها أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له في تلك البقعة تبركاً بها؛ لكونها مجاورة لبقعة احتضنت أجساد الطاهرين .

والمهم في البحث أن نثبت أن عمل اليهود والنصارى هو ما ذكرناه، ولنا في ذلك شواهد :

الشاهد الأول: قول عائشة في رواية البخاري: (قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً) .

فإنه من الواضح أن الجدار لا يمنع من الصلاة بجوار القبر، وإنما يمنع من عبادة القبر، بحيث يقف الناس بين يديه يعبدونه، ولا أقل يمنع من اتخاذ الزائر له قبلة في الصلاة إن كان الجدار يمنع من اتخاذه قبلة في الصلاة .

الشاهد الثاني: أنه ورد في رواية مالك في الموطأ قوله ﷺ: (اللهم ! لا تجعل قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور

أنبيائهم مساجد)[١] .

فيظهر من الربط بين الأمرين: (لا تجعل قبري وثناً يعبد)، و(اشتد غضب ..) أن اليهود والنصارى قد اتخذوا قبور أنبيائهم أوثاناً يعبدونها، ولا أقل أنهم اتخذوها قبلة لهم في عبادتهم .

قال السيوطي في تنوير الحوالك: (قال ابن عبد البر: قيل: معناه النهي عن السجود على قبور الأنبياء، وقيل النهي عن اتخاذها قبلة يصلى إليها)[٢] .

الشاهد الثالث: ما ورد في رواية أم سلمة وأم حبيبة: (بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور)؛ فإن تصوير الصور عند القبر ليس إلا لجعلها قبلة لهم، أو لعبادتها فلهذا ورد التأكيد في النهي بقوله ﷺ (أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)، فهل يعقل أنهم كانوا يعبدون الله تعالى عند قبور أنبيائهم ومع ذلك يكونون شراً ممن يعبد الأصنام!!

لا يعقل أنهم شر من عبدة الأصنام إلا إذا كانوا يعبدون أنبيائهم أو صورهم عند قبورهم .

الشاهد الرابع: فهم العلماء لهذه الأحاديث، قال العيني في عمدة القاري:

(قال القرطبي: إنما صور أوائلهم الصور ليستأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون

---

(١) الموطأ ١: ١٧٢ .

(٢) تنوير الحوالك: ١٨٩ .

الله عند قبورهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك ...

وقال: ولما احتاجت الصحابة، والتابعون إلى زيادة مسجده عليه الصلاة والسلام بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا تصل إليه العوام فيؤدي إلى ذلك المحذور، ثم بنوا جدارين بين ركني القبر الشمالي حرفوها حتى التقيا حتى لا يمكن أحد أن يستقبل القبر .

إلى أن قال: وقال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي ومنع المسلمين عن مثل ذلك .

فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه، لا للتعظيم له، ولا للتوجه إليه، فلا يدخل في الوعيد المذكور)[1] .

وفي حاشية السندي على النسائي:

(ومراده بذلك أن يحذّر أمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذهم تلك القبور مساجد، أما بالسجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها .

قيل: ومجرد اتخاذ مسجد في جوار صالح تبركاً غير ممنوع)[2] .

إلى غير ذلك من كلمات أعلامهم .

---

(١) عمدة القاري ٤: ١٧٤ .

(٢) حاشية السندي على النسائي ٢: ٤١ .

وأحسن شاهد على عدم إرادة حرمة بناء المساجد بجوار القبور هو مسجد نبينا محمد ﷺ وقبره؛ فإن مسجده بجوار قبره قبل التوسعة، ثم صار في وسط المسجد، وكان محل دفنه باختيار من الله تعالى ووصية منه ﷺ، وقام به باب مدينة علمه، وبمرأى من الصحابة والتابعين والعلماء في مر العصور، فلم يتفوه أحد بحرمته، ولا اعترض معترض عليه، فهل يعقل أن يكون مراد النبي ﷺ من الأحاديث السابقة حرمة بناء المساجد الى جوار القبور، ومع ذلك يوصي بأن يكون مدفنه بجوار مسجده؟! إن هذا الا اختلاق.

والخلاصة:

أن ابن تيمية حرم بناء المساجد على القبور، وبناءها بجانبها، واستدل على ذلك بأدلة ـ لو دلت على الحرمة ـ لدلّت على خصوص جعل القبر مسجداً بحيث يصلى فوقه، ولا علاقة لها ببناء المسجد إلى جانب القبر المتعارف عليه عند المسلمين.

المسألة السادسة: التبرك بآثار الأنبياء والصالحين

من المسائل التي قال عنها ابن تيمية وأتباعه بأنها من موجبات الشرك مسألة التبرك بآثار الصالحين الأموات، ولهذا منعوا تقبيل ضريح النبي ﷺ والمسح عليه وكل ما يرتبط بذلك أشد المنع.

وحاصل كلامهم في التبرك: إن التبرك بالصالحين الأموات شرك أكبر، والتبرك بالصالحين الأحياء بدعة ووسيلة إلى الشرك فيجب تركه، وما قام به الصحابة من التبرك بوضوء النبي ﷺ وأمثاله فهو من خصائصه ﷺ.

ولكن بالرجوع إلى مفهوم العبادة المتقدم يتضح أن التبرك بهذه الآثار والمقامات الشريفة ليس من الشرك في شيء؛ فإن الشرك في عمل ما فرع انطباق مفهوم العبادة على ذلك العمل، والعبادة لا تنطبق إلا على الخضوع باعتقاد إلوهية المخضوع له أو ربوبيته أو له شيء من صفات الربوبية، ومن يتبرك بآثار النبي ﷺ أو الأولياء والصالحين لا يعتقد بشيء من ذلك فيهم، بل يراهم عباداً مصطفين، لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا بإقدار الله تعالى لهم، وقد طرح الله تعالى البركة في آثارهم؛ لقربهم المعنوي منه تعالى، فيتبرك بهم للاستفادة من البركة التي طرحها الله تعالى فيهم وفي آثارهم.

وبناء على هذا فلا يختلف الأمر بين حال حياتهم وموتهم؛ لأن البركة من الله تعالى لأجل قربهم المعنوي منه، وقربهم لم ينقطع بموتهم، فلو كان التبرك شركاً لكان في الحالين، ولو لم يكن شركاً لكان في الحالين، فلا ينبغي التفريق بين التبرك بالرسول ﷺ في حال حياته وأنه لا يوجب الشرك، والتبرك به بعد حياته فيوجب الشرك؛ فإن التفريق على هذا الأساس لا أساس له، والشرك ـ إن حصل، فهو شرك في الحالين، ولا يصح عند العقلاء أن يقال: هذا الفعل شرك إذا قمت به تجاه الميت، وهو بعينه وبنفس القصد والنية ليس بشرك إذا قمت به تجاه الحي.

إذا اتضح هذا قلنا ـ إضافة إلى ما تقدم ـ : إن الأدلة تدل على جواز التبرك، ووقوعه ممن يعتبر بهم أهل السنة، وهي كثيرة بلغت حد التواتر لا يمكن إنكارها، ولكنا نقتصر على ذكر بعضها:

١ـ عقد البخاري في صحيحه باباً عنونه بـ: (باب ما ذكر من درع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته **مما تبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته**)[١].

٢ـ في البخاري: عن أنس بن مالك أن قدح النبي ﷺ انكسر فاتخذ مكان الشعب سلسلة من فضة قال عاصم رأيت القدح وشربت فيه[٢].

فلماذا احتفظ به أنس وهو مكسور ؟ ولماذا قال عاصم: رأيته

(١) صحيح البخاري ٤: ٤٦ .

(٢) صحيح البخاري ٤: ٤٧ .

وشربت منه؟ أليس للتبرك؟

٣ـ وفيه: باب الشرب من قدح النبي ﷺ وآنيته، وقال أبو بردة قال لي عبد الله بن سلام ألا أسقيك في قدح شرب النبي ﷺ فيه[1].

فلماذا عرض عليه أن يسقيه من القدح، أليس للتبرك؟

٤ـ ومثله في ضمن حديث: (... فأقبل النبي ﷺ يومئذ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال: اسقنا يا سهل فخرجت لهم بهذا القدح فأسقيتهم فيه، فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال: ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له)[2].

٥ـ وفيه: عن أبي بردة قال قدمت المدينة فلقيني عبد الله بن سلام فقال لي: انطلق إلى المنزل فأسقيك في قدح شرب فيه رسول الله ﷺ، وتصلي في مسجد صلى فيه النبي ﷺ فانطلقت معه فسقاني وأطعمني تمراً وصليت في مسجده)[3].

٦ـ وفيه : عن أم عطية قالت : توفيت بنت النبي ﷺ فقال لنا اغسلنها ...، فإذا فرغتن فآذنني فآذناه فنزع من حقوه إزاره وقال أشعرنها إياه[4].

وأخرجه مسلم في صحيحه[5]، وقال شارحه النووي:

---

(١) صحيح البخاري ٦: ٢٥١ـ٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري ٦: ٢٥٢.

(٣) صحيح البخاري ٨: ١٥٤.

(٤) صحيح البخاري ٢: ٧٤.

(٥) صحيح مسلم ٣: ٤٧.

(ومعنى أشعرنها إياه اجعلنه شعاراً لها ، وهو الثوب الذي يلي الجسد سمّي شعاراً لأنه يلي شعر الجسد ، والحكمة في إشعارها به تبريكها به، **ففيه التبرك بآثار الصالحين ولباسهم**)[١] .

وبمعناه في عمدة القاري؛ حيث قال في الأخير:

(والحكمة فيه التبرك بآثاره الشريفة ، ...، وهو أصل في التبرك بآثار الصالحين)[٢] .

٧ـ وفي صحيح مسلم: (عن عائشة إن رسول الله ﷺ قال: إن في عجوة العالية شفاء، أو إنها ترياق أول البكرة)[٣] .

أليس لكونها تبركت وتشرفت بأرض فيها رسول الله ﷺ ، أو لأنه هو الغارس لها؟

٨ـ في الجامع الصغير للسيوطي: (٥٧٥٣ : غبار المدينة شفاء من الجذام .

٥٧٥٤ : غبار المدينة يبرئ من الجذام .

٥٧٥٥ : غبار المدينة يطفئ الجذام)[٤] .

أليس كل ذلك لأنها تشرفت بوجود الرسول ﷺ ، بحيث أثّر وجوده المبارك في الغبار الذي يرتفع من الصحراء والفلوات؟ فكيف بقبره الشريف الذي يضم جسده المبارك؟!

---

(١) شرح مسلم للنووي ٧ : ٣ .

(٢) عمدة القاري للعيني ٨: ٤١ .

(٣) صحيح مسلم ٦ : ١٢٤ .

(٤) الجامع الصغير ٢ : ١٩٧ـ١٩٨ .

٩ـ قال المناوي في فيض القدير: (٥٧٥٣ ـ (غبار المدينة) النبوية (شفاء من الجذام) قال ابن جماعة: لما حج ابن المرحل المقدس سنة أحد وسبعين وسبعمائة ورجع إلى المدينة سمع شيخاً من المحدثين يقول: كان في جسد بعض الناس بياض فكان يخرج إلى البقيع عرياناً وفي السحر ويعود فبرأ بذلك الغبار، فكأن ابن المرحل حصل في نفسه شيء فنظر في يده فوجد فيها بياضاً قدر الدرهم، فأقبل على الله بالدعاء والتضرع وخرج إلى البقيع وأخذ من رمل الروضة ودلك به ذلك البياض فذهب)[1] .

١٠ـ في صحيح ابن حبان: (ذكر ما يستحب للمرء التبرك بالصالحين وأشباههم ...)[2] .

وفي ص٣١٩: (ذكر استحباب التبرك للمرء بعشرة مشايخ أهل الدين والعقل) .

١١ـ وفي الطبقات الكبرى لابن سعد: (... عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القارئ: أنه نظر إلى ابن عمر وضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه)[3] .

١٢ـ عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: رأيت ناساً من أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون)[4] .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٥٢٦ .

(٢) صحيح ابن حبان ٢: ٣١٧ـ٣١٩ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٥٤ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٥٤ .

١٣ـ وعن أبي عبيدة بن عبد الله عن عبد الله بن مسعود قال: ادفنوني عند قبر عثمان بن مظعون)[١] .

فلماذا أراد ابن مسعود أن يدفن عند ابن مظعون وكلاهما صحابي؟ أليس لأجل التبرك بالقرب من تربته؟

وقد تعرض العلامة الأميني ﵀ في غديره العذب إلى هذا البحث واستوعبه، نذكر بعض ما استحسناه منه:

١ـ أخرج الحافظ ابن عساكر في (التحفة) من طريق طاهر بن يحيى الحسيني قال: حدثني أبي عن جدي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله تعالى عنه قال: لما رمس رسول الله ﷺ جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها فوقفت على قبره ﷺ وأخذت قبضة من تراب القبر ووضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبّت عليَّ مصائب لو أنها
صبت على الأيام عدن لياليا [٢]

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ١٥٩ .

(٢) ورواه ابن الجوزي في (الوفاء) وابن سيد الناس في السيرة النبوية ٢ص٣٤٠، والقسطلاني في (المواهب) مختصرا ، والقاري في شرح (الشمائل) ٢ ص ٢١٠ ، والشبراوي في (الإتحاف) ص ٩ ، والسمهودي في (وفاء الوفاء) ٢ص٤٤٤ ، والخالدي في (صلح الأخوان) ص ٥٧ ، والحمزاوي في (مشارق الأنوار) ٦٣ ، والسيد أحمد زيني دحلان في (السيرة النبوية) ٣ ص ٣٩١ ، وعمر رضا كحالة في (أعلام النساء) ٣ ص ١٢٠٥ .

٢ـ عن أبي الدرداء قال: إن بلالا [مؤذن النبي ﷺ] رأى في منامه رسول الله ﷺ وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال ؟! أما آن لك أن تزورني يا بلال ؟! فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما فجعل يضمهما ويقبلهما . الحديث[1] .

٣ـ عن داود بن أبي صالح: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً

وذكر البيتين لها سلام الله عليها ابن حجر في (الفتاوى الفقهية) ٢ ص ١٨، والخطيب الشربيني في (تفسيره) ١ ص ٣٤٩ ، والقسطلاني في (إرشاد الساري) ٢ ص ٣٩٠ .

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في (تاريخ الشام) مسنداً بطريق في موضعين ـ كما في (شفاء السقام) ـ ص ٣٩ و ٤٠ في ترجمة إبراهيم بن محمد الأنصاري ج ٢ ص ٢٥٦ وفي ترجمة بلال غير أن مهذب الكتاب حذف الإسناد في الموضع الأول وأبقى المتن، وأسقطه رأساً سنداً ومتناً في الثاني، وقد أخطأ وأساء على الحديث وعلى الكتاب .

ورواه الحافظ أبو محمد عبد الغني المقدسي في (الكمال) في ترجمة بلال . وأبو الحجاج المزي في (التهذيب) . والسبكي في (شفاء السقام) ص ٣٩ وقال: **روينا ذلك بإسناد جيد** ولا حاجة إلى النظر في الإسنادين اللذين رواه ابن عساكر بهما ، وإن كان رجالهما معروفين مشهورين .

وذكره ابن الأثير في (أسد الغابة) ١ ص ٢٠٨ . والسمهودي في (وفاء الوفاء) ٢ ص ٤٠٨ **وقال: سند جيد** ، وص ٤٤٣ وقال: **إسناده جيد** ، والقسطلاني في (المواهب اللدنية) ، والخالدي في (صلح الأخوان) ص ٥٧ ، والحمزاوي في (مشارق الأنوار) ص ٥٧ .

وجهه [جبهته] على القبر فأخذ مروان برقبته ثم قال: هل تدري ما تصنع؟

فأقبل عليه فإذا أبو أيوب الأنصاري، فقال: نعم إني لم آت الحجر إنما جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله[1].

قال الأميني: إن هذا الحديث يعطينا خبراً بأن المنع عن التوسل بالقبور الطاهرة إنما هو من بدع الأمويين وضلالاتهم منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أذن الدنيا قط صحابياً ينكر ذلك غير وليد بيت أمية مروان الغاشم ...

٤ـ قال العز بن جماعة الحموي الشافعي المتوفى ٨١٩ في كتاب (العلل والسؤالات) لعبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه رواية أبي علي بن الصوف عنه، قال عبد الله، سألت أبي عن الرجل يمس منبر رسول الله ﷺ ويتبرك بمسه ويقبله ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى؟

قال: لا بأس به[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) ٤ ص ٥١٥، **وصححه هو والذهبي في تلخيصه**، ... وذكره السيد نور الدين السمهودي في (وفاء الوفاء) ج ٢ ص ٤١٠، ٤٤٣، نقلا عن إمام الحنابلة أحمد قال: رأيته بخط الحافظ أبي الفتح المراغي المدني، وأخرجه الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد) ٤ ص ٢ نقلا عن أحمد.

(٢) وفاء الوفاء ٢: ٤٤٣.

٥ـ قال العلامة أحمد بن محمد المقري المالكي المتوفى١٠٤١ في [فتح المتعال بصفة النعال] نقلاً عن ولي الدين العراقي: قال: أخبر الحافظ أبو سعيد بن العلا قال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر(١) وغيره من الحفاظ: إن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبي ﷺ وتقبيل منبره ؟

فقال: لا بأس بذلك .

قال: فأريناه التقي ابن تيمية فصار يتعجب من ذلك ويقول: عجبت من أحمد؛ عندي جليل، هذا كلامه أو معنى كلامه .

وقال: وأي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصاً للشافعي وشرب الماء الذي غسله به ؟(٢) وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فما بالك بمقادير الصحابة ؟ وكيف بآثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

٦ـ قال شيخ مشايخ الشافعية، الشافعي الصغير محمد بن أحمد الرملي المتوفى ١٠٠٤ في شرح (المنهاج): ويكره ...، وتقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء . نعم: **إن قصد التبرك لا يكره كما أفتى به الوالد ...**(٣) .

---

(١) هو الحافظ محمد بن ناصر أبو الفضل البغدادي توفي سنة ٥٥٠، قال ابن الجوزي في المنتظم ١٠ ص ١٦٣: كان حافظاً متقناً ثقة لا مغمز فيه .

(٢) ذكره ابن الجوزي في مناقب أحمد ص ٤٥٥، وابن كثير في تاريخه ١٠ ص ٣٣١ .

(٣) حكاه الشبراملسي الشيخ أبي الضياء المتوفى ١٠٨٧ في حاشية (المواهب اللدنية) والحمزاوي في (كنز المطالب) ص ١٩ .

٧ـ قال أبو العباس أحمد الرملي الكبير الأنصاري شيخ الشيوخ في حاشية (روض الطالب) المطبوعة في هامش (أسنى المطالب) ج١ ص٣٣١ عند قول المصنف في أدب مطلق زيارة القبور [أن يدنو منه دنوه منه حيا]: قال في المجموع:

ولا يستلم القبر ولا يقبله، ويستقبل وجهه للسلام، والقبلة للدعاء، وذكره أبو موسى الأصبهاني قال شيخنا:

نعم: إن كان قبر نبي أو ولي أو عالم واستلمه أو قبله بقصد التبرك فلا بأس به .

٨ نقل الطيب الناشري عن محب الدين الطبري الشافعي: إنه يجوز تقبيل القبر ومسه، وقال: **وعليه عمل العلماء الصالحين** وأنشد:

حيث قال:

لو رأينا لسليمى أثراً لسجدنا ألف ألف للأثر[1]

٩ـ قال الحافظ ابن حجر: استنبط بعضهم من مشروعية تقبيل الحجر الأسود جواز تقبيل كل من يستحق التعظيم من آدمي وغيره.

فأما تقبيل يد الآدمي فسبق في الأدب، وأما غيره فنقل عن أحمد أنه سئل عن تقبيل منبر النبي ﷺ وقبره فلم يرَ به بأساً ، واستبعد بعض أتباعه صحته عنه[2] .

١٠ـ وأخبر جمال الدين عبد الله بن محمد الأنصاري المحدث قال:

---

(١) وفاء الوفاء للسمهودي ٢ ص ٤٤٤ .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ٢: ٤٤٤ .

رحلنا مع شيخنا تاج الدين الفاكهاني[١] إلى دمشق فقصد زيارة نعل سيدنا رسول الله ﷺ التي بدار الحديث الأشرفية بدمشق وكنت معه فلما رأى النعل المكرمة حسر عن رأسه وجعل يقبله ويمرغ وجهه عليه ودموعه تسيل وأنشد:

حيث قال:

فلو قيل للمجنون: ليلى ووصلها
تريد أم الدنيا وما في طواياها ؟
لقال: غبار من تراب نعالها
أحب إلى نفسي وأشفى لبلواها[٢]

---

(١) الفقيه المالكي المتضلع من الفقه وأصوله والأدب ، له تآليف قيمة ، توفي ٧٣٤ .

(٢) الديباج المذهب: ١٨٧ . نقلنا كل ما تقدم عن الغدير ٥: ١٤٧ـ١٤٩ .

المسألة السابعة : الحلف بغير الله تعالى

من المسائل التي يثيرها أتباع ابن تيمية ويؤكدون عليها هي مسألة الحلف بغير الله تعالى، فبعضهم ذهب إلى أنه شرك أكبر، وآخرون إلى أنه شرك أصغر، والمسألة ذات فرعين:

الفرع الأول: في انعقاد اليمين بالحلف بغير الله تعالى وجوازها في القضاء في الخصومات .

الفرع الثاني: في حرمتها مطلقاً وكونها من موجبات الشرك .

أما الفرع الأول فلا ينعقد اليمين بمن حلف بغير الله تعالى، فلا يحنث لو خالفه، كما لا يصح اليمين بغير الله ولا بأسمائه في باب القضاء، فهذا الفرع خارج عن محل الكلام في توحيد العبادة .

وأما الفرع الثاني فهو محل البحث، بحيث لو قال المسلم: ورسول الله ما فعلت أو لأفعلن كذا فهو شرك عند أتباع بني أمية .

ولكن من خلال ما قدمناه لمفهوم العبادة نعرف بأن عنوان العبادة لغير الله تعالى لا ينطبق عليه، فبالتالي ينتفي موضوع كونه شركاً؛ وذلك لأن من قال من المسلمين: وأبيك لا أفعل كذا، أو وحق الرسول، أو والكعبة لا أفعل كذا، لا يعتقد بأن للمحلوف به ما لله تعالى من العظمة والكبرياء، وأنه يحلف به كما يحلف بالله تعالى، فهو بالتالي

لم يُشْرِك مع الله تعالى أحداً في الإلوهية ولا في الربوبية ولا في العظمة والكبرياء، وقد دلّت الآيات والروايات على جوازه .

يقول الشيخ الأكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء تتئُّ :

(لا يرتاب مسلم في أن القسم بغير الله، على وجه إرادة صاحب العظمة والكبرياء والملكوت والقدرة والجبروت، باعث على الخروج عن ربقة المسلمين .

وأما إرادة مجرد التأكيد، فلا يلزم منه كفر ولا إشراك بديهةً؛ إذ ليس مدار الكفر على مجرد العبارات، ويدل على ذلك أنه قد ورد القسم بغير الله متواتراً في كلام الصحابة والتابعين، بل في كلام خاتم النبيين ﷺ)[1] .

أدلة الجواز :

الدليل الأول : القرآن الكريم :

هناك آيات كثيرة أقسم الله تعالى فيها بخلقه، منها قوله تعالى:

١ـ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[2] .

٢ـ ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[3] .

(١) منهج الرشاد لمن أراد السداد: ٥٤٩ .

(٢) سورة التين: ١ـ ٣ .

(٣) سورة الفجر: ١ـ٥ .

٣ـ ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾[١] .

وغير ذلك كثير، لا حاجة للتوسع فيها لوضوحها وكثرتها .

نعم ربما يقال: بأن لله تعالى أن يقسم بمن شاء من خلقه، إنما الكلام بالنسبة إلى الخلق فليس لهم أن يقسموا بغير الله تعالى وأسمائه .

فنقول: بأن الفعل إذا كان قبيحاً في نفسه فإن الله تعالى ينهى عباده عنه ولا يفعله؛ لأنه منزّه عن ارتكاب القبيح، كما في الظلم؛ فإنه قبيح فنهى الله عباده عنه، ولا يصدر منه ظلم لأحد، فإذا كان القسم بالمخلوق قبيحاً في نفسه لا يقوم به الله تعالى، وبما أنه أقسم بغير واحد من خلقه كشف ذلك عن عدم قبحه وجواز لغيره .

الدليل الثاني : الأحاديث :

وهي عدة أحاديث صحيحة وهي:

١ـ عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما **وأبيك لتنبأنه** أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء)[٢] .

٢ـ عن طلحة بن عبيد الله عن النبي ﷺ بهذا الحديث نحو حديث مالك غير أنه قال: فقال رسول الله ﷺ : **أفلح وأبيه** إن صدق، أو دخل الجنة **وأبيه إن صدق**)[٣] .

---

(١) سورة العصر: ١ـ٢ .

(٢) صحيح مسلم ٣: ٩٣ـ٩٤، مسند أحمد ٢: ٢٣١ .

(٣) صحيح مسلم ١: ٣٢، سنن الدارمي ١: ٣٧١، سنن أبي داود ١: ٩٧ .

٣ـ عبيد الله بن إياد بن لقيط، سمعت إياد بن لقيط يقول: سمعت ليلى امرأة بشير تقول: إن بشيراً سأل النبي ﷺ أصوم يوم الجمعة ولا أكلم ذلك اليوم أحداً؟ فقال النبي ﷺ: لا تصم يوم الجمعة الا في أيام هو أحدها، أو في شهر، وأما أن لا تكلم أحداً **فلعمري** لأن تكلم بمعروف وتنهى عن منكر خير من أن تسكت[1] .

الدليل الثالث : ما ورد عند الصحابة أو بمسمعهم :

١ـ في كتاب أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى معاوية: **لعمري** لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم (عثمان) ...[2] .

٢ـ قال ابن حجر في فتح الباري: (وقد ثبت مثل ذلك من لفظ أبي بكر الصديق في قصة السارق الذي سرق حلي ابنته، فقال في حقه: **وأبيك ما ليلك** بليل سارق، أخرجه في الموطأ وغيره)[3] .

٣ـ في صحيح مسلم: حين يقول الشاعر:

قال:

ألا يا سعد سعد بني معاذ فما فعلت قريظة والنضير

لعمرك إن سعد بني معاذ غداة تحملوا لهو الصبور[4]

قال الشيخ الأكبر في منهج الرشاد: (وقد وقع هذا القسم بلفظ (لعمري) في كلام الصحابة والتابعين، في نثرهم وشعرهم كثيراً،

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٢٤ـ٢٢٥ .

(٢) نهج البلاغة ٣: ٧ .

(٣) فتح الباري ١١: ٤٦٤ .

(٤) صحيح مسلم ٥: ١٦١ .

بحيث يتعذر ضبطه)[١] .

٤ـ وروى نصر بن مزاحم، عن رجاله، عن عمرو بن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول لعمار: (تقتلك الفئة الباغية)، وكان ذكره لأهل الشام قبل وقعة (صفين) بعشرين سنة فسمعه عبد الله بن عمر العبسي، وكان أعبد أهل زمانه، فخرج ليلاً وأصبح في عسكر علي عليه السلام ، فحدّث الناس بقول عمرو، وقال شعراً:

قال:

والراقصات بركبٍ عابدين له
إن الذي جاء من عمرو لمأثور
ما في مقال رسول الله في رجل
شك، ولا في مقال الرسل تحبير[٢]

٥ـ في فتوح الشام وهو يتحدث عن بعض حروب المسلمين قال: (ثم حمل الأمير أبو عبيدة وحمل المسلمون، قال عامر بن ربيعة: وعيش عاش فيه رسول الله(ص) سيد المسلمين ما كان بيننا وبينهم إلا جولة الجائل حتى ولوا الأدبار..)[٣].

قال الشيخ الأكبر: (وكم للصحابة والتابعين من حلف بشيبة رسول الله، وضريحه وعينيه، وتربته، وليس هذا من القسم الحقيقي

---

(١) منهج الرشاد لمن أراد السداد للشيخ جعفر كاشف الغطاء: ٥٤٩ـ٥٥٠ .

(٢) منهج الرشاد لمن أراد السداد: ٥٥٠، عن وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ٣٤٣ .

(٣) فتوح الشام للواقدي ١: ١٣٢، وفي ص١٧١ مثله عن خالد .

في شيء، إذ المراد مجرد التأكيد والتثبت دون حقيقة القسم التي هي مدار القضايا والحكومات، وتدور عليها ما لزم من الكفارات) .

آراء المذاهب الأربعة في الحلف بغير الله :

قال ابن حجر في فتح الباري: (وأما اليمين بغير ذلك ـ بغير الله وأسمائه وصفاته ـ فقد ثبت المنع فيها، وهل المنع للتحريم؟ قولان عند المالكية، كذا قال ابن دقيق العيد، **والمشهور عندهم الكراهة** .

والخلاف أيضاً عند الحنابلة، لكن المشهور عندهم التحريم، وبه جزم الظاهرية .

وقال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع، ومراده بنفي الجواز الكراهة، أعم من التحريم والتنزيه؛ فإنه قال في موضع آخر: أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة منهي عنها، لا يجوز لأحد الحلف بها .

والخلاف موجود عند الشافعية من أجل قول الشافعي: أخشى أن يكون الحلف بغير الله معصية، فأشعر بالتردد، وجمهور أصحابه على أنه للتنزيه .

وقال إمام الحرمين: **المذهب القطع بالكراهة**، وجزم غيره بالتفصيل، فإن اعتقد في المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده في الله حرم الحلف به وكان بذلك الاعتقاد كافراً، وعليه يتنزل الحديث المذكور، وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك ولا تنعقد يمينه)[1] .

---

(١) فتح الباري ١١ : ٤٦٢، في شرح الحديث الآتي (فقد أشرك) .

فالملاحظ أن الخلاف بينهم فقهي في الكراهة أو الحرمة .

أدلة القائلين بإيجابه الشرك :

استدلوا على ذلك ببعض الأحاديث منها:

١. في البخاري وغيره: (عن ابن عمر أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ : **ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله والا فليصمت**)[1] .

٢ـ في مسند أحمد: (جاء ابن عمر رجل **فقال**: أحلف بالكعبة؟ فقال: لا ولكن احلف برب الكعبة؛ فان عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ : لا تحلف بأبيك؛ فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك)[2].

٤ـ في سنن أبي داود: (عن أبي هريرة، **قال**: **قال** رسول الله ﷺ : (لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد)[3] .

٥ـ في سنن النسائي عن عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت)[4] .

وبعد ضم الأحاديث بعضها إلى بعض يمكن أن يكون الوجه فيها أحد المحامل الآتية:

الأول: أن النهي عن الحلف بآبائهم لأنهم كفار، ولا كرامة لهم ليحلف بهم .

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٩٨ .

(٢) مسند أحمد ٢: ٨٦ـ٨٧ .

(٣) سنن أبي داود ٢: ٩١ .

(٤) سنن النسائي ٧: ٧ .

الثاني: أن الحلف بغير الله مكروه، والتعبير عنه بالشرك للمبالغة في الزجر لبيان شدة الكراهة كما ذهب إليه غير واحد من علماء السنة، منهم: محيي الدين النووي في المجموع، والشوكاني في نيل الأوطار، وابن حجر في فتح الباري وغيرهم، واتفق الثلاثة على هذه الكلمة: (وفي التعبير بقوله كفر أو أشرك للمبالغة في الزجر والتغليظ في ذلك)[1] .

الثالث: أن الحلف الممنوع منه والمعبر عنه بالشرك هو الحلف بالأصنام أو بآبائهم على نحو حلف المسلم بالله تعالى، وحلف الكافر باللات، ويؤيده إضافة (ولا بالأنداد، أو لا بالطواغيت في بعض الروايات) .

الرابع: أن الحلف المنهي عنه هو الحلف لإثبات الدعوى في باب القضاء .

والحاصل: أن الحلف بغير الله الذي لا يكون على نحو الحلف بالله تعالى، ولا لأجل إثبات الدعوى في باب القضاء، ولا لأجل أنه ينعقد بحيث يحنث لو لم يعمل على طبقه، ولا لأجل تطبيق شيء من الأحكام عليه، بل كان لمجرد تأكيد الأمر المدعى لا شيء فيه .

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١١: ٤٦٢، نيل الأوطار للشوكاني ٩: ١٢٣، المجموع للنووي ١٨: ١٧ .

المسألة الثامنة : في تسمية عبدالرسول وشبهه

من الأمور التي يعتبرها أتباع ابن تيمية رمزاً من رموز الشرك هو تسمية الشخص بما يبتدأ بالعبودية للمخلوق كعبد الرسول، وعبد النبي، وعبد علي، وعبد الحسن، وعبد الحسين وهكذا ...؛

وما يمكن أن يكون سنداً لهم في ذلك هو أن العبادة لا تكون إلا لله تعالى .

والجواب عن هذه الشبهة: أن العبودية تطلق على معنيين:

المعنى الأول: ما يقابل الإلوهية، وهي بهذا المعنى ناشئة من المملوكية التكوينية؛ فإن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون وبارئ العباد، فهو المالك الحقيقي لجميع الخلق، والخلق كلهم عبيده بالعبودية التكوينية، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[1] .

المعنى الثاني: الطاعة أو ما يقاربها كما في معاجم اللغة، ففي لسان العرب: (التعبد: التنسك، العبادة: الطاعة)[2] .

---

(١) سورة مريم: ٩٣ .

(٢) لسان العرب .

وفي القاموس: (والعبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة)[1] .

وعلى هذا فلو كان المراد من قول القائل: (عبد الرسول، وعبد علي) وغيرهما المعنى الأول - بحيث يعتقد بأنه يعبد الرسول ﷺ، أي يكون هو عابداً والرسول معبوداً - لكان شركاً .

وإن كان المراد هو المعنى الثاني، بحيث يكون المعنى: مطيع الرسول ﷺ، مطيع علي عليه السلام، فليس فيه شائبة شرك، بل الاعتقاد به أمر ضروري ولو لم يسم اسمه أو اسم أولاده به؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾[2] .

وقد ثبت في محله أن أولي الأمر هم أئمة أهل البيت عليهم السلام فتجب طاعتهم بأمر من الله تعالى كما تجب طاعة الرسول ﷺ بأمر من الله تعالى .

وبما أن تسمية الشيعة لأولادهم مبنية على المعنى الثاني فليس فيه شائبة شرك، ولا يؤدي إليه، بل لا حرمة فيه أيضاً .

ومما يؤكد عدم الشرك في هذه التسمية أن الله تعالى أطلق لفظة العبد على المخلوق بالإضافة إلى المخلوق الآخر، فقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ ﴾[3] .

وقد عقد الفقهاء باباً في الفقه وأطلقوا عليه: (أحكام العبيد والإماء) .

---

(١) القاموس المحيط .

(٢) سورة النساء: ٥٩ .

(٣) سورة النور: ٣٢ .

وعلى هذا فما يستدل به على الحرمة مناف للقرآن الكريم فلا يعتد به .

ونختم بهذه المسألة ما أردنا بيانه وتحريره في مبحث توحيد العبادة بعد أن أتينا على أهم مسائله بحمد الله وتوفيقه ومنّه وكرمه ببركة من كتبت هذه المباحث الأخيرة بجوارها سيدتنا السيدة زينب بنت أمير المؤمنين علي عليه وعليها السلام، وبما بيناه يتضح حال بقية المسائل التي لم نتعرض إليها، وآخر دعوانا:

﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] .

وكان ختام التحرير في يوم الجمعة المباركة الموافق ٢٩/١٠/١٤٣١هـ، ختم الله لنا بالخيرات، وجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه .

---

(١) سورة يونس: ١٠ .

مراجع الكتاب

١- القرآن الكريم.

٢- آلاء الرحمن في تفسير الرحمن للشيخ محمد جواد البلاغي.

٣- إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي ﷺ لابن الصديق المغربي.

٤- الإغاثة لحسن السقاف.

٥- البشارة والإتحاف لحسن بن علي السقاف.

٦- البداية والنهاية لابن كثير.

٧- البيان في تفسير القرآن للسيد أبو القاسم الخوئي.

٨- تاج العروس للزبيدي.

٩- تاريخ الإسلام للذهبي.

١٠- التبيان في تفسير القرآن للشيخ محمد بن الحسن الطوسي .

١١- تذكرة الحفاظ للذهبي.

١٢- تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد للصنعاني.

١٣- تفسير البيضاوي .

١٤- تفسير القرطبي.

١٥- تفسير ابن كثير .

١٦- تفسير المنار لرشيد رضا .

١٧- تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت.

١٨- تنوير الحوالك للسيوطي.

١٩- تناقضات الألباني الواضحات لحسن السقاف.

٢٠- تفسير الثعلبي .
٢١- تطهير الفؤاد لمحمد بخيت الحنفي.
٢٢- التوحيد للشيخ الصدوق.
٢٣- التوحيد والشرك في كتاب الله للشيخ جعفر السبحاني.
٢٤- ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة للشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.
٢٥- جامع البيان للطبري .
٢٦- الجامع الصغير للسيوطي.
٢٧- حاشية السندي على النسائي لابن عبد الهادي.
٢٨- خلاصة عبقات الأنوار للسيد حامد النقوي اللكهنوي.
٢٩- درء التعارض لابن تيمية.
٣٠- الدر المنثور للسيوطي.
٣١- الدرر السنية في الرد على الوهابية لأحمد زيني دحلان.
٣٢- دفع الشبه عن الرسول ﷺ للحصني الدمشقي.
٣٣- دعوة الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى للشيخ محمد جواد البلاغي.
٣٤- الرد على الوهابية للشيخ محمد جواد البلاغي .
٣٥- رفع المنارة لمحمود سعيد ممدوح.
٣٦- سنن النسائي.
٣٧- سنن أبي داود.
٣٨- سنن الدارمي.
٣٩- سنن النسائي.
٤٠- سنن الترمذي.
٤١- سنن ابن ماجة لابن ماجة.
٤٢- سير أعلام النبلاء للذهبي.
٤٣- السيرة النبوية لابن هشام .
٤٤- شرح النووي على صحيح مسلم .
٤٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض.
٤٦- الشرح الكبير على متن المقنع لعبد الرحمن بن أبي عمر ابن قدامة المقدسي.

٤٧- **شفاء السقام لتقي الدين السبكي.**
٤٨- **صحيح ابن حبان.**
٤٩- **الصحاح للجوهري.**
٥٠- **صحيح البخاري .**
٥١- **صحيح مسلم .**
٥٢- **الطبقات الكبرى لابن سعد.**
٥٣- **عقيدة التوحيد لصالح الفوزان .**
٥٤- **عمدة القاري للعيني.**
٥٥- **عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي.**
٥٦- **الغدير للشيخ عبد الحسين الأميني.**
٥٧- **فتح المجيد لحسن آل محمد بن عبد الوهاب.**
٥٨- **فتح الباري لابن حجر العسقلاني.**
٥٩- **فتح العزيز شرح الوجيز لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي.**
٦٠- **فتوح الشام للواقدي.**
٦١- **فقه السنة لسيد سابق.**
٦٢- **الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري .**
٦٣- **فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي.**
٦٤- **القاموس المحيط للفيروزابادي.**
٦٥- **القول المفيد على كتاب التوحيد لابن العثيمين.**
٦٦- **الكافي للشيخ محمد بن يعقوب الكليني.**
٦٧- **كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب للسيد محسن الأمين.**
٦٨- **كنز الفوائد للشيخ أبي الفتح الكراجكي.**
٦٩- **كنز العمال للمتقي الهندي.**
٧٠- **لسان العرب لابن منظور.**
٧١- **مجمع البحرين للشيخ فخرد الدين الطريحي.**
٧٢- **مجمع الزوائد للهيثمي.**
٧٣- **مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي .**

٧٤- المجموع لمحيي الدين النووي.
٧٥- مجموع الفتاوى لابن تيمية .
٧٦- مختار الصحاح لمحمد بن عبد القادر.
٧٧- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
٧٨- مسند أحمد لأحمد بن حنبل.
٧٩- مسند ابن الجعد لعلي بن الجعد بن عبيد.
٨٠- مسند أبي يعلى.
٨١- المصنف لعبد الرزاق الصنعاني.
٨٢- معاني الأخبار للقاضي نعمان المصري.
٨٣- المعجم الأوسط للطبراني.
٨٤- المعجم الصغير للطبراني.
٨٥- المعجم الكبير للطبراني.
٨٦- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج لمحمد بن أحمد الشربيني.
٨٧- المغني لعبد الله بن قدامة.
٨٨- مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني .
٨٩- الملل والنحل للشهرستاني .
٩٠- منهج الرشاد لمن أراد السداد للشيخ جعفر كاشف الغطاء.
٩١- المناظرات للشيخ علي أبو الحسن الخنيزي.
٩٢- الموطأ لمالك.
٩٣- الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي.
٩٤- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.
٩٥- نهج البلاغة للشريف الرضي.
٩٦- نيل الأوطار للشوكاني.
٩٧- وفاء الوفا للسمهودي الشافعي.
٩٨- الوهابية في الميزان للشيخ جعفر السبحاني.

المحتويات

